

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب آداب المريدين

أبو النجيب ضياء الدين السهروردي

رضي الله عنه

فهرس

- 1 م
- 5 ذهب الصوفية في أصل الاعتقاد
- 2 ف
- 7 صل: القول في الفقر والغنى
- 3 ف
- 8 صل: الفقر غير التصوف
- 4 ف
- 11 صل: الكلام على فروع الدين وأحكامه
- 5 ف
- 12 صل: في ذكر أقاويلهم في التصوف وآدابهم
- 6 ف
- 13 صل: في ذكر أحكام المذهب
- 7 ف
- 14 صل: أخلاقهم أجل الخصال
- 8 ف
- 15 صل: مقام العبد بين يدي الله في عبادته
- 9 ف
- 16 صل: الأحوال معاملات القلوب
- 10 ف
- 17 صل: في ذكر اختلاف المسالك والمقصود واحد
- 11 و
- 17 المقاصد مختلفة لاختلاف حال القاصدين ومقامات السالكين

12	ف.....	12
18	ف.....	18
13	ف.....	13
19	ف.....	19
14	ف.....	14
20	ف.....	20
15	ف.....	15
23	ف.....	23
16	ف.....	16
24	ف.....	24
17	ف.....	17
25	ف.....	25
18	ف.....	18
30	ف.....	30
19	ف.....	19
32	ف.....	32
20	ف.....	20
33	ف.....	33
21	ف.....	21
35	ف.....	35
22	ف.....	22
36	ف.....	36
23	ف.....	23
37	ف.....	37
24	ف.....	24
40	ف.....	40

ف.....25

41 صل: في ذكر آدابهم في السؤال

ف.....26

42 صل: في ذكر آدابهم في حال المرض

ف.....27

43 صل: في ذكر آدابهم في حال الموت

ف.....28

45 صل: في ذكر آدابهم وقت البلاء

ف.....29

47 صل: في ذكر آدابهم في الرخص

مذهب الصوفية في أصل الاعتقاد

فنبداً أولاً بذكر مذهبهم في أصل الاعتقاد.

أجمعوا على أن الله تعالى واحد لا شريك له، ولا ضد له ولا شبهة له ولا ند له، موصوف بما وصف به نفسه، مسمي بما سمي به نفسه. ليس بجسم، فإن الجسم ما كان مؤلفاً، والمؤلف يحتاج إلى مؤلف. ولا هو بجوهر فإن الجوهر ما كان متحيزاً، والرب تعالى ليس بمتحيز، بل هو خالق كل متحيز وحيز.

ولا هو بعرض، فإن العرض لا يبقى زمانين، والرب سبحانه واجب البقاء لا اجتماع له ولا افتراق له ولا أبعاد له، ولا يزوجه ذكر، ولا يلحقه فكر، ولا تحققة العبارات، ولا تعيينه الإشارات، ولا تحيط به الأفكار، ولا تدركه الأبصار، وكل شيء وكل شيء عنده بمقدار، ولا يقال كونه بل يقال وجوده، لأنه ليس كل موجود كائناً وكل كائن فهو موجود وكل ما تصور في الوهم أو حواه في الفهم فالله تعالى بخلافه.

فإن قلت: متى؟ فقد سبق الوقت كونه، وأن قلت: كيف؟ فقد احتجت عن الوصف ذاته، وأن قلت: أين؟ فقد تقدم المكان وجوده عليه كل شيء صنعه ولا عله لصنعه، ليس بذاته تكييف، ولا لفعله تكليف. احتجبت عن العقول كما احتجت عن الأبصار، لأن العقل على مثله يدل والعقل آلة العبودية لا للإشارة إلى الربوبية ليست ذاته كالذوات ولا صفاته كالصفات وليس معنى العلم في وصفه نفى الجهل ولا القدرة نفى العجز.

وأجمعوا على إثبات ما ذكره الله تعالى في كتابه. وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في أخباره من ذكر الوجه واليد والنفس والسمع والبصر من غير تمثيل ولا تعطيل كما قال جل اسمه ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)) الآية 11 من سورة الشورى.

وسئل بعضهم عن الله تعالى فقال: إن سألت عن ذاته فليس كمثله شيء. وأن سألت عن صفاته فهو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وأن سألت عن اسمه فهو الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم وإن سألت عن فعله فكل يوم هو في شأن.

وقولهم في الاستواء ما قاله مالك بن أنس حين سئل عن ذلك فقال: الاستواء معلوم والكيف غير معقول وإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وكذلك مذهبهم في النزول.

وأجمعوا على أن القرآن كلام الله وأنه غير مخلوق.

مكتوب في مصاحفنا متلو بالسنننا محفوظ في صدورنا من غير تعرض للكتابة ولا للتلاوة لأن لم ترد بذلك.

وأجمعوا على جواز رؤية الله تعالى في الجنة بالأبصار وإنما نفى الله الإدراك بالأبصار لأن ذلك يوجب كيفية وإحاطة وليس كذلك الرؤية. والنبي صلى الله عليه وسلم شبه النظر بالنظر لا المنظور بالمنظور إليه في قوله صلى الله عليه وسلم ((إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته))

وأجمعوا على الإيمان والإقرار بجملة ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه وجاءت به الروايات

عن النبي صلى الله عليه وسلم من الجنة والنار واللوح والقلم والحوض والشفاعة والصراف والميزان والصور والعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وإخراج قوم من النار بشفاعة الشافعين والبعث بعد الموت وأن الجنة والنار خلقتا للبقاء وأن أهلها فيهما مخلدون ومنعمون ومعذبون غير أهل الكيئات من المؤمنين فإنهم في النار لا يخلدون.

وأجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى خالق لأفعال عباده كما أنه خالق لأعمالهم كما قال الله تعالى ((والله خلقكم وما تعملون)) الآية 96 من سورة الصافات.

وأن الخلق كلهم يموتون بأجلهم. وأن الشرك والمعاصي كلها بقضاء وقدر من غير أن يكون لأحد على الله حجة قال تعالى ((قل فليله الحجة البالغة)) آية 149 من سورة الأنعام

ولا يرضى لعباده الكفر والمعاصي والرضا غير الإرادة.

ويرون الصلاة خلف كل بر وفاجر ولا يشهدون لأحد من أهل القبلة بالجنة خير أتى به ولا يشهدون عليه بالنار لكبيرة أتى بها.

ويرون الخلافة في قريش ليس لأحد منازعتهم فيها ولا يرون الخروج على الولاة وأن كانوا ظلما. ويؤمنون بالكتب المنزلة والأنبياء والمرسلين وأهم أفضل البشر وأن محمداً أفضلهم من بعدهم وأن الله ختم به الأنبياء.

وأن أفضل البشر من بعده أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم تمام العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ثم القرن الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم العلماء العاملون، ثم أنفعهم للناس.

وأجمعوا على تفضيل الرسل على الملائكة - واختلّفوا في تفضيل الملائكة على المؤمنين، والمفروض أن بين الملائكة تفاضلا كما أن بين المؤمنين تفاضلا.

وأجمعوا على أن طلب الحلال فريضة، وأن الأرض لا تخلوا من الحلال، لأن الله سبحانه وتعالى طالب العباد بطلب الحلال، ولم يطالبهم إلا بما يمكن أنه يكثر في موضع ويقبل في موضع، فإن ظاهره جميلا فلا يتهم في ماله ومكسبه.

وأجمعوا على أن كمال الإيمان الإقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، من ترك العمل فهو كافر، ومن ترك التصديق فهو منافق ومن ترك العمل فهو فاسق، ومن ترك الإتياع فهو مبتدع. وأن الناس يتفاضلون في الإيمان، وأن المعرفة بالقلب لا تنفع ما لم يتكلم بكلمتي الشهادة، إلا أن يكون له عذر يثبت بالشرع.

ويرون الاستثناء في الإيمان من غير شك على سبيل التأكيد والمتابعة، لأن الأمر مغيب، سئل الحسن البصري مؤمن حقا؟ قال: أن أردت ما يحقن به دمي وتحل به ذبيحتي ومنا كحتي فأنا مؤمن حقا، وأن أردت ما أدخل به الجنان وأنجو به من النيران ويرضي به الرحمن فأنا مؤمن إن شاء الله وقد استثنى الله تعالى في كتابه في قوله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) آية 27 من سورة الفتح وليس هناك شك.

سئل بعضهم عن هذا الاستثناء من الله تعالى فقال: أراد بذلك تأديبا لعباده وتنبیها لهم على أن الحق إذا أستثنى مع كمال علمه فلا يجوز لأحد الحكم من غير استثناء لقصور علمه، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: في أهل المقابر ((وأنا إن شاء الله عن قريب بكم لاحقون)) ولم يكن شاكاً في الموت واللاحق بهم فصح أن الاستثناء قد يكون بغير شك.

وأجمعوا على إباحة الكسب والتجارات والصناعات على سبيل التعاون على البر والتقوى، من غير أن يري ذلك سببا لاستجلاب الرزق وأن آخر الكسب للمرء السؤال، ولا تحل المسألة لغني ولا لذي مروءة سوي.

فصل: القول في الفقر والغنى

وأجمعوا على أن الفقر أفضل من الغنى إذا كان مقرونا بالرضي، ولذلك أختاره النبي صلى الله عليه وسلم وأشار عليه جبريل بذلك حين عرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض على ألا ينقص له مما عند الله جناح بعوضه، وأشار إليه جبريل صلى الله عليه وسلم: أن تواضع فقال ((أريد أن أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك)) سنن الترمذي وبذلك يحتج من يرد ما يعرض عليه من الدنيا. وقول النبي صلى الله عليه وسلم ((اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشني في زمرة المساكين، " وأمره الله تعالى بالصبر معهم فقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) آية 28 من سورة الكهف، فإن احتج محتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم ((اليد العليا خير من اليد السفلي)) مسند الإمام احمد

وقال ((اليد العليا هي المعطية واليد السفلي هي السائلة)) قيل له: اليد العليا تنال الفضيلة بإخراج ما فيها واليد السفلي تنالها المنقصة بحصول الشيء فيها وفي تفضيل السخاء والعطاء دليل على فضل الفقر بأنه لو كان ملك الشيء محموداً لكان تركه بالعطاء مذموماً، فمن يفضل الغنى للإنفاق والعطاء على الفقر كان كمن فضل المعصية على الطاعة، لفضل التوبة وإنما فضل التوبة لترك المعاصي المذمومة، كذلك فضل الإنفاق إنما هو لإخراج المال الملهي عن الله عز وجل.

فصل: الفقير غير المتصوف

الفقير غير المتصوف، بل نهايته بدايته، وكذلك الزهد غير الفقر، وليس الفقر عندهم الفاقة والعدم فحسب بل الفقر اخمود الثقة بالله تعالى والرضا بما قسم.

والصوفي غير الملامتي فإن الملامتي هو الذي لا يظهر خيرا ولا يضمير شرا والصوفي هو الذي لا يشتغل بالخلق ولا يلتفت إلي قبولهم ولا إلي ردهم. وأجمعوا على أن ترك الاشتغال بالمكاسب والصناعات والتفرغ للطاعات أجل وأفضل لمن ترك الاهتمام بطلب الرزق واتكل على مضمون الحق إلا أن يستوي عنده الخلوة والجلوة والمخالطة والعزلة ويصير مشاهدا للقدرة في كل حالة وقال بعضهم لا تكونوا بالرزق مهتمين فتكونوا للرزق مهتمين وبضمانه غير واثقين وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: لو كان من أين لفني. وقيل لآخر: من أين تأكل؟ فقال سل من يطعمني من أين يطعمني؟

وأجمعوا على أن أفعال العباد ليست بسبب للسعادة ولا للشقاوة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم ((السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه)).

وأن الثواب فضله، والعقاب عدله والرضي والسخط نعتان قديمان لا يتغيران بأفعال العباد، فمن رضي عنه استعمله بعمل أهل الجنة، ومن سخط عليه استعمله بعمل أهل النار.

ويرون الرضا بالقضاء والصبر على البلاء والشكر على النعماء واجبا على كل أحد وأن الخوف والرجاء زمامان للعبد ينعانه عن سوء الأدب، وكل قلب خلا منهما فهو خراب، وأن الأمر والنهي وأحكام العبودية لازمة للعبد مادام عاقلا غير أنه إذا صفا قلبه مع الله تسقط عنه كلفة التكاليف لا نفس وجوبها. وأن البشرية لا تزول عن أحد ولو تربع في الفضاء غير أنها تضعف تارة وتقوي أخرى.

والحرية من رق النفس جائزة في حق الصديقين والصفات المذمومة تفني من العارفين وتحمد في حق المريدين. وأن العبد ينتقل في الأحوال حتى يصير إلى نعت الروحانيين فتطوي له الأرض ويمشي على الماء ويغيب عن الأبصار. وأن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجب على من أمكنه بما أمكنه.

وأجمعوا على إثبات كرامات الأولياء وجوزوها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وفي غير عصره. ونبوة الأنبياء لم تثبت بالمعجزة، ولكن بإرسال الله تعالى إياهم والفرق بين المعجزة والكرامة أن النبي يجب عليه إظهار المعجزة والتحدي بها. والولي يجب عليه أن يكتفم الكرامة إلا أن يظهرها الله تعالى عليه وإنما يظهر للخلق ما كان الله ثابتا. وأنكروا المراء في الدين وندبوا إلي الاشتغال بما لهم وعليهم.

وأجمعوا على إباحتهم لبس سائر الأنواع من الثياب، إلا ما حرمت الشريعة لبسه على الرجال، وهو ما كان أكثره إبريسما ويرون الاقتصار على الأدرن من الثياب والخلقان، والمرقعات أفضل، لقول النبي صلى الله عليه وسلم ((ما قل وكفي خير مما كثر وألهي)) الجامع الصغير للسيوطي.

. ولأنه من الدنيا التي حلالها حساب وحرامها عقاب، ولقوله صلى الله عليه وسلم ((من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة)) المستدرك للحاكم

ويختارون لبس المرقعات لمعان منها: أمّا أقل مئونة وأقل تحرقاً، وأبقي على صاحبها وأقرب إلى النواضع وأصبر على الكد وتدفع الحر والقر ولا مطمع فيها لأحد من أهل الشر وتمنع عن الفساد والكبر، روي عن عائشة رضي الله عنها أمّا قالت ((أمرني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أطرح درعا حتى أرقعه))

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في حديث ذكره قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقع ثوبه ورأيت أبو بكر رضي الله عنه يتخلل بالعباءة، ورأيت عمر يرقع جبته برقاع. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أحب الألوان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخضرة وثياب أهل الجنة خضر (الجامع الصغير)

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((خير ثيابكم البياض)) (السنن الكبرى للنسائي) معناه أجمل ثيابكم وألقيها بسائر الناس.

وأجمعوا على استحباب تسحين الصوت بالقرآن ما لم يخل بالمعني، لقوله صلى الله عليه وسلم ((زينوا القرآن بأصواتكم)) (المستدرك للحاكم) ولقوله عليه السلام ((إن لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن (الجامع الصغير للسيوطي) ويكرهون القراءة بالألحان المقطعة.

وأما القصائد والأشعار فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشعر ((هو كلام فحسنه حسن وقبيحة قبيح)) فالحسن منه ما كان من المواعظ والحكم وذكر آلاء الله تعالى ونعماته، ونعت الصالحين وصفة المتقين فسماعه مستحب، وما كان من ذكر الأطلال والمنازل والآلام والأمم فسماعه مباح، وما كان من هجو وسخف فسماعه حرام، وما كان من وصف الخدود والقُدود والشعور، وما يوافق الطباع والنفوس فسماعه مكروه، إلا لعالم رباني يميز بين الطبع والشهوة والإلهام والوسوسة قد أمانت نفسه بالرياضات والمجاهدات، وحمدت بشريته وفيت حظوظه وبقيت حقوقه وهو كما قال الله سبحانه وتعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)) (آية 18 من سورة الزمر

وعلامه من هذه صفته أن يستوي عنده المدح والقدح والعتاء والمنع، والجفاء والوفاء، سئل بعض المشايخ عن السماع فقال: مستحب لأهل الحقائق، مباح لأهل النسك والورع مكروه

لأصحاب النفوس والحظوظ وسئل الجنيد عنه فقال كل ما يجمع العبد بين يدي الله تعالى، ثم قال: فهو مباح.

وأما سماع الصوت الحسن والنغمة الطيبة فهو حظ الروح وهو مباح. لأن الصوت الطيب في ذاته محمود، وقيل في تفسير قوله تعالى ((يزيد في الخلق ما يشاء)) (آية 1 من سورة فاطر) قيل: هو الصوت الحسن الطيب. وقال بعضهم: إن الصوت الطيب لا يدخل في القلب شيئا ولكنه يحرك ما في القلب.

ثم إن أهل السماع يتفاوتون في حال سماعهم فمنهم من يغلب عليه في حال سماعه الخوف أو الحزن أو الشوق فيؤديه ذلك إلى البكاء والأنين والشهقة وتمزيق الثياب والغيبة والاضطراب ومنهم من يغلب عليه الرجاء والفرح والاستبشار فيؤديه إلى الطرب والرقص والتصفيق كما روي عن داود عليه السلام أنه استقبل السكينة بالرقص وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: أتينا النبي صلى الله عليه وسلم أنا وزيد وجعفر فقال لجعفر ((أشبهت خلقي وخلقي)) فحجل فرحا بقوله وقال لزيد ((أنت أخونا ومولانا فحجل. وقال لي ((أنت مبي وأنا منك)) فحجلت. وقال أبو عبيدة الحجل أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى، وقد يكون ذلك بالرجلين، إلا أنه قفز وليس بمشي.

وقد يحدث للمستمع في حال سماعه شوق إلى ما يذكر فينب من مكانه فعل من يريد الذهاب إلى محبوبه وإذا علم أن لا سبيل إليه كرر الوثوب مرارا ويدور دورنا متتابعا وقد يكون ذلك عن تردد يظهر في حال خلال السماع بين الجسد والروح وذلك لأن الجسد سفلي خلق من التراب والروح روحانية علوية خلقت من الفرح فالروح تعلقو إلى عالمها والجسد ينزل إلى محله إلى أن يقع السكون وقد يكون ذلك منهم على سبيل الفرح والتفسيح والتطايب في حال السماع وليس بمحظور إلا أنه ليس من صفات المحققين.

وحكي عن أبي عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري أنه قال: سر الصادق في السماع ثلاثة: العلم بالله والوفاء بما هو عليه وجمع الهمة والمكان الذي يسمع فيه يحتاج إلى طيب الروائح وحضور الوقار وعدم الأضداد ورؤية من يتلهي ومن يتتسم.

ويسمع على ثلاثة: على الحجة، والخوف، والرجاء والحركة في السماع على ثلاثة أنواع: الطرب والوجد والخوف فالطرب له ثلاث علامات الرقص والتصفيق والفرح والوجد له ثلاث علامات: الغيبة والاصطلام والصرخات والخوف له ثلاث علامات البكاء واللطم والزفرات.

فصل: الكلام على فروع الدين وأحكامه

وأما فروع الدين وأحكامه فقد أجمعوا على وجوب تعلم ما لا يسع جهله من أحكام الشريعة، وما يحل وما يحرم ليكون العمل موافقا للعلم، فقد قيل: إذا تجرد العلم عن العمل كان عقيما، وإذا خلا العمل عن العلم كان سقيما. وقال صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) سنن ابن ماجه.

واختاروا من المذاهب مذهب السلف فقهاء أصحاب الحديث ولا ينكرون الاختلاف بين العلماء في الفروع، لقوله صلى الله عليه وسلم ((اختلاف العلماء رحمة)) وسئل بعضهم عن العلماء الذين اختلف فيهم رحمة من هم؟ فقال المعتصمون بكتاب الله تعالى، المجاهدون في متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقتدون بالصحابة. وهم ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء وعلماء الصوفية.

فأما أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أساس الدين لقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) آية 7 من سورة الحشر واشتغلوا بسماعه ونقله وتدبره وتمييز صحيحة من سقيمه وهم حراس الدين.

وأما الفقهاء فإنهم فضلوا على أصحاب الحديث بعد قبول علمهم - بما خصوا به من الفهم والاستنباط في فقه الحديث والتعمق بدقيق النظر في ترتيب الأحكام وحدود الدين والتمييز بين الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد والجمل والمفسر والخاص والعام والحكم والمتشابه فهم حكام الدين أعلامه.

وأما الصوفية فاتفقوا مع الطائفتين في معانيهم ورسومهم إذا كان ذلك مجانباً لاتباع الهوى ومنوطاً بالافتداء، فمن لم يحط من الصوفية علماً بما أحاطوا به يرجعون فيه إليهم في أحكام الشرع وحدود الدين، فإذا اجمعوا فهم على إجماعهم، وإذا اختلفوا أخذ الصوفية بالأحسن والأولي وليس من مذهبهم طلب التأويلات وركوب الشهوات. ثم إنهم خصوا بعد ذلك بعلوم عالية، وأحوال شريفة وتكلموا في علوم المعاملات وغيوب الحركات والسكنات وشريف المقامات، وذلك مثل التوبة، والزهد، والورع والصبر والرضا والتوكل والمحبة والخوف والرجاء والمشاهدة والطمأنينة واليقين والقناعة والصدق والإخلاص، والشكر، والذكر، والفكر، والمراقبة والاعتبار والوجل والتعظيم، والإجلال، والندم والحياء والجمع والنفرة والفناء والبقاء ومعرفة النفس ومجاهدتها ورياضتها، ودقائق الرياء، والشهوة الخفية، والشرك الخفي، وكيفية الخلاص منها. ولهم أيضاً مستنبطات من علوم مشكلة على الفقهاء وذلك مثل العوارض والعوائق وحقائق الأذكار وتجريد التوحيد ومنازل التفريد وخبايات السر وتلاشي المحدث إذا قوبل بالقديم، وغيوب الأحوال، وجمع المتفرقات، والإعراض عن الأغراض، بترك الاعتراض. فهم مخصوصون بالوقوف على المشكل من ذلك بالمنازلة والمباشرة والهجوم ببذل المهج حتى طالبوا من ادعي حالاً منها بدلانها وتكلموا في صحيحها وسقيمتها فهم حماة الدين وأعيانه وأنصاره وأعوانه.

ثم إن كل من أشكل عليه شيء من العلوم الثلاثة فعليه أن يرجع فيه إلى أئمتها، فمن أشكل عليه شيء من علوم الحديث ومعرفة الرجال يرجع فيه إلى أئمة الحديث لا إلى الفقهاء ومن أشكل عليه شيء من دقائق الفقه يرجع إلى أئمة الفقهاء، ومن أشكل عليه شيء من علوم الأحوال والرياضات ودقائق الورع ومقامات المتوكلين يرجع فيه إلى أئمة الصوفية لا إلى غيرهم، فمن فعل غير ذلك فقد اخطأ الطريق وسلك المضيق.

فصل: في ذكر أقاويلهم في التصوف وآدابهم

اختلفت أجوبة المشايخ في التصوف لاختلاف الأحوال فكل أجاب على حسب حاله أو على قدر ما يجتمل مقام السائل فإن كان مريداً أوجب على ظاهر المذهب من حيث المعاملات وإن كان متوسطاً أوجب من حيث الأحوال، وإن كان عارفاً أوجب من حيث الحقيقة. وأظهر ما قال بعضهم: إن أول التصوف علم وأوسطه عمل وآخره موهبة فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على الطلب والموهبة تبلغ غاية الآمل.

وأهله على ثلاث طبقات: مريد طالب، ومتوسط سائر، ومنته واصل فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب نفس وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس. فالمريد متعوب في طلب المراد والمتوسط مطالب بآداب المنازل وهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال وهو في الزيادة والمنتهي الواصل محمول قد جاوز المقامات، وهو في محل التمكين لا تغيره الأحوال ولا تؤثر فيه الأحوال، كما قيل عن زليخا لما كانت صاحبه تمكين في شأن يوسف لم تؤثر فيها رؤية يوسف كما أثرت في اللاتي قطعن أيديهن وإن كانت أتم في حبه منهن فمقام المريد انجاهدات والمكابدات وتجرع المرارات ومجانبة المخطوظ وما للنفس فيه متعه ومقام المتوسط ركوب الأحوال في طلب المراد ومراعاة الصدق في الأحوال واستعمال الآداب في المقامات ومقام المنتهي الصحو والتمكين وإجابة الحق من حيث دعاه قد استوي في حالة الشدة والرخاء والمنع والعتاء والجفاء والوفاء، أكله: كجوعه، ونومه: كسهرة قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه، ظاهرة مع الخلق وباطنة مع الحق، وكل ذلك منقول من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أوله كان متخلياً في غار حراء ثم صار مع الخلق، ولا فرق عنده بين الخلوة والجلوة وكذلك أصحاب الصفة صاروا في حالة التمكين أمراء وزراء، فإن المخالطة لا تؤثر فيهم.

فصل: في ذكر أحكام المذهب

ثم إن للمذهب ظاهرا وباطنا فظاهره استعمال الأدب مع الخلق، وباطنه منازلة الأحوال والمقامات مع الحق، ألا ترى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نظر إلى المصلي وهو يعبت في صلته قال (لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) الجامع الصغير.

ولما قال الجنيد لأبي حفص الحداد رحمهما الله: أدبت أصحابك آداب السلاطين.

قال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن وقال السري رحمه الله: حسن الأدب ترجمان العقل ومراعاة الأدب فيما بينهم مقدم على غيره، ألا ترى كيف مدح الله تعالى أهله وشرف محلهم بقوله تعالى ((إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)) آية 3 من سورة الحجرات

وقال أبو عبد الله بن خفيف قال لي روم يا بني اجعل علمك ملحا وأدبك دقيقا وقيل التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول وقيل: من حرم الأدب حرم جميع الخيرات وقيل: من لم يتأدب للوقت مقت وقيل: أدب النفس أن تعرفها الخير وتحنها عليه وتعرفها الشر وتزجرها عنه وقيل: الأدب سند الفقراء وزين الأغنياء والناس في الأدب على ثلاث طبقات: أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل الدين، فأما أهل الدنيا فأكثر آدابهم فيها الفصاحة.

والبلاغة، وحفظ العلوم، وأخبار الملوك وأشعار العرب وأما أهل الدين فأكثر آدابهم مع العلوم رياضة النفوس وتأديب الجوارح وتهديب الطباع وحفظ الحدود وترك الشهوات واجتناب الشبهات والمسارة إلى الخيرات وأما أهل الخصوصية من أهل الدين فأدابهم حفظ القلوب ومراعاة الأسرار واستواء السر والعلانية.

والمريدون يتفاضلون بالعمل والمتوسطون بالأدب والعارفون بالهمة وقيل الهمة ما يبعثك من نفسك على طلب المعالي وقيمة كل امرئ همته ستل أبو بكر الواسطي عن مالك بن دينار وداود الطائي ومحمد ابن واسع وأمناهم من العباد فقال: القوم ما خرجوا من نفوسهم إلا إلى نفوسهم تركوا النعيم الفاني للنعيم الباقي إلى خالق الفناء والبقاء.

وستل الجنيد عن قوله تعالى (لا يسألون الناس إلحافا) آية 273 من سورة البقرة. فقال: تمنعهم علو همهم عن رفع حوائجهم إلا إلى مولاهم وقال الحصري في حكاية: أذا زفرت جهنم زفرة فالكل يقول نفسي نفسي الآجل والأدنى إلا محمدا صلى الله عليه وسلم يرجع إلى حد الشفاعة فيقول: أمتي أمتي.

فلا يبقى لأحد نفس بلا علة فتقول ربي ربي، ليعلم أن محل الحوادث لا يخلو من العلل.

فصل: أخلاقهم أجل الخصال

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن (مسند الإمام احمد) قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) (آية 199 من سورة الأعراف) وقال صلى الله عليه وسلم ((ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟ قالوا: بلى قال أحاسنكم أخلاقا المؤمنون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون)) وقال صلى الله عليه وسلم ((سوء الخلق شؤم، وشراركم أسوأكم أخلاقا)) (الجامع الصغير) وقال أبو بكر الكتاني التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف.

ومن أخلاقهم: الحلم والتواضع والنصيحة، والشفقة والاحتمال، والمواقفة، والإحسان، والمداراة، والإيتار، والخدمة، والألفة، والبشاشة، والكرم، والفتوة، وبذل الجاه والمروءة، والمودة، والجود، والتودد، والعفو، والصفح والسخاء، والوفاء، والحياء، والتلطف، والبشر، والطلاقة. والسكينة والوقار، والدعاء، والثناء، وحسن الظن وتصغير النفس، وتوقير الأخوان، وتبجيل المشايخ، والترحم على الصغير والكبير، واستصغار ما منه واستعظام ما منه واستعظام ما إليه. وسئل سهل بن عبد الله عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والدعاء له.

هذه أخلاق المتصوفين لا ما قاله وارثه المتشبهون، فإنهم سموا الطمع زيادة وسوء الأدب إخلاصا، والخروج عن الحق شطحا، والتلذذ بالمذموم طيبة، واتباع الهوى ابتلاء، والرجوع إلى الدنيا وصولا وسوء الخلق صولة والبخل نكادة وبداءة اللسان ملامة وما كان هذا طريق القوم وحكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال لبعض أصحابه قم بنا إلى هذا الذي أشهر نفسه بالزهد. فقصداه فوجداه خارجا من داره إلى المسجد فنظر أبو يزيد إليه وقد رمي نخامة إلى جانب القبلة فقال لصاحبه: هذا ليس بمأمون على أدب من آداب الشريعة فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من مقامات الأولياء، فرجع ولم يسلم عليه.

فصل: مقام العبد بين يدي الله في عباداته

أما المقامات فإنها مقام العبد بين يدي الله في عباداته، قال الله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم)) (آية 164 من سورة الصافات) وأولها الانتباه: وهو خروج العبد من حد الغفلة، ثم التوبة: وهي الرجوع إلى الله تعالى من بعد الذهاب مع دوام الندامة وكثرة الاستغفار، ثم الإنابة: وهي الرجوع من الغفلة إلى الذكر. وقيل: التوبة الرهبة، والإنابة: الرغبة، وقيل التوبة في الظاهر والإنابة في الباطن، ثم الورع: وهو ترك ما اشتبه عليه، ثم محاسبة النفس: وهي تفقد زيادتها من نقصانها وما لها وعليها، ثم الإرادة وهي استدامة الكد، وترك الراحة، ثم الزهد: وهو ترك الحلال من الدنيا، والعزوف عنها وعن شهواتها، ثم الفقر: وهو عدم الامتلاك وتخليه القلب مما خلت عنه اليد، ثم الصدق: وهو استواء السر والإعلان، ثم التصبر: وهو حمل النفس على المكارة وتجرع المرارات. وهو آخر مقامات المرادين، ثم الصبر: وهو ترك الشكوى، ثم الرضا: وهو التلذذ بالبلوى، ثم الإخلاص: وهو إخراج الخلق من معاملة الحق، ثم التوكل على الله تعالى: وهو الاعتماد عليه بإزالة الطمع عما سواه.

فصل: الأحوال معاملات القلوب

وأما الأحوال فإنها معاملات القلوب وهي ما يجلب بها من صفاء الأذكار قال الجنيد: الحال نازلة تنزل بالقلب ولا تدوم، فمن ذلك المراقبة: وهي النظر بصفاء اليقين إلى المغيبات ثم القرب: وهو جمع الهمم بين يدي الله تعالى بالغيبة عما سواه، ثم المحبة: وهي موافقة الخوب في محبوبة ومكروهه ثم الرجاء وهو تصديق الحق فيما وعد، ثم الخوف: وهو مطالعة القلوب بسطوات الله تعالى ونقماته، ثم الحياء: وهو حفظ القلب عن الانبساط، وذلك لأن القرب يقتضي هذه الأحوال فمنهم من ينظر في حال قربته إلى عظمة الله تعالى وهيته فيغلب عليه الخوف والحياء، ومنهم من ينظر إلى لطف الله تعالى وقدم إحسانه فيغلب على قلبه المحبة والرجاء ثم الشوق وهو هيمان القلب عند ذكر الخوب ثم الأنس: وهو السكون إلى الله تعالى والاستعانة به في جميع الأمور ثم الطمأنينة: وهي السكون تحت مجاري الأقدار، ثم المشاهدة وهي فصل بين رؤية اليقين ورؤية العيان، لقوله صلى الله عليه وسلم ((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) وهو آخر الأحوال ثم تكون فواتح ولوائح ومنايح تجفو العبادة عنها قال تعالى ((وأن تعدوا نعمت الله لا تحصوها)) (آية 34 من سورة إبراهيم).

فصل: في ذكر اختلاف المسالك والمقصود واحد

والمقاصد مختلفة لاختلاف حال القاصدين ومقامات السالكين

فمنهم من سلك طريق العبادة ولا زم الماء والحراب، واشتغل بكثرة الذكر والنوافل وواظب على الأوراد، وهي أسلم الطرق قال تعالى (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) (آية 18 من سورة الزمر)

ومنهم من سلك طريق الرياضات والمكابدات وقهر النفس في المخالفات وهي أفضل الطرق قال تعالى: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) (آية 54 من سورة القصص)

ومنهم من سلك طريق الخلوة والعزلة طلبا للسلامة من المخالطة وهي أصح الطرق (فأولئك ما عليهم من سبيل) (آية 41 من سورة الشورى) ومن سلك طريق السياحة والأسفار والاعتراب عن البلدان وحمول الذكر وهي أوضح الطرق قال تعالى: (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم) (آية 16 من سورة الأحقاف)

ومنهم من سلك طريق الخدمة وبذل الجاه للإخوان وإدخال السرور عليهم وهي أشرف الطرق قال تعالى: (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) (آية 75 من سورة الفرقان).

ومنهم من سلك طريق المجاهدات وركوب الأهوال ومباشرة الأحوال.

ومنهم من سلك طريق إسقاط الجاه عند الخلق وقلة الالتفات إليهم وترك الاشتغال بخيرهم وشكرهم ومنهم من سلك طريق العجز والانكسار كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) (آية 102 من سورة التوبة)

ومنهم من سلك طريق التعلم والمساءلة ومجالسة العلماء وسماع الأخبار وحفظ العلوم وكل طريق يحتاج فيه إلى موفق ودليل يأخذ به فيه ليسلم من الحيرة والفتنة قيل لبعضهم إن فلانا قد رجع فقال أراه رجع إلا لوحشة الطريق من قلة سالكيها.

فصل: في ذكر قولهم في فضل العلم

قال الله ((شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط)) (آية 18 من سورة آل عمران) بدأ بنفسه وثنى بملائكة وثالث بأهل العلم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((العلماء ورثة الأنبياء)) (صحيح البخاري) وقال عليه السلام: ((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا)). وقيل: العلم روح والعمل جسد. وقيل: العلم أصل والعمل فرع. وقيل: العلم حاكم والعمل محكوم عليه. وقد فضل الجمهور من مشايخنا العلم على المعرفة وعلى العقل لأن الله تعالى يوصف بالعلم ولأن العلم حاكم على العقل ولا حكم للعقل على العلم. وقيل: لا ينفع العلم إلا بالعقل وكذلك العقل لا ينفع إلا بالعلم. وقيل لبعض الحكماء: متى يكون الآداب أضر؟ قال: إذا كان العقل أنقص. وقيل: الآداب صورة عقلك فحسن عقلك كيف شئت. ومن فضل العلم أن الهدهد مع قلة خطره أجب سليمان صلى الله عليه وسلم مع علو مرتبه بصولة العلم وقوته في قوله: ((أحطت بما لم تحط به)) مع قلة الاكثراث بتهديده ووعيده.

فصل: في ذكر آدابهم في محاوراتهم

وهو أن يقصد بكلامه النصح والإرشاد وطلب النجاة وما يعود نفعه على الكل ولا يكلم الناس إلا على قدر عقولهم قال النبي صلى الله عليه وسلم ((أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم)) ولا يتكلم في مسألة لا يسأل عنها وإذا سئل عنها أجاب على قدر السائل. قيل حكى عن الجنيد رحمه الله أنه قيل له: يسألك السائل عن مسألة فتجيبه ثم يسألك آخر عن تلك المسألة فتجيبه بجواب آخر؟ فقال: على قدر السائل يكون الجواب. وإذا سأل لا يسأل إلا عن مقامه. ولا يتكلم فيما لا يبلغه استعماله وقد قيل: يجوز ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)) (ابن ماجه في سننه) ولا يبذل العلم إلا لأهله وقيل ابذل العلم لأهله ولغير أهله فالعلم أمنع جانباً من أن يصل إلى غير أهله ولا يتكلم بين يدي من هو أعلم منه سئل ابن المبارك مسألة بحضرة سفيان الثوري فقال: أنا أتكلم عند الأستاذين. وقال بعضهم: لا يحسن هذا العلم إلا لمن عن وجده وينطق عن فعله. وقيل: من لم ينتفع بسكوته لم ينتفع بكلمه. ومن الآداب ألا يتكلم في العلم قبل أوانه فيتولد عنه أفات تقطعه عن الفوائد ويجذر أن يطلب الجاه والمنزلة عند الناس والحكام الدنيا فيكون ممن لا ينفعه الله تعالى بعلمه. وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع وقال صلى الله عليه وسلم ((من طلب العلم ليمارى به العلماء أو يجارى به السفهاء أو ليصرف به وجهه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار (الجامع الصغير) ويجتهد في استعمال ما سمعه ويعلمه. فقد قيل: كل من سمع شيئاً من علوم القوم فعمل به صار ذلك حكمة في قلبه وينفع به السامعون له وكل من سمع ولم يعلم به كان ذلك حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها وقيل: الكلام إذا خرج من القلب وقع على القلب وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذنين. حكى الشبلي أن رويماً قال للجنيد رحمهما الله: كم تنادى على الله بين يدي العامة؟ فقال: أنا أنادى على العامة بين يدي الله تعالى فقال: قوم أفنوا أسرارهم بالخطوط وأبصارهم باللحظ أنى لهم إلى ذكر الله سبيل. وقيل للنوري: لم لا تتكلم على إخوانك؟ فقال: لأنهم في سفر الوحشة. وقد حكى الشبلي أنه قال في مجلس الجنيد: الله. فقال: إن كنت حاضراً فهو ترك الحرمة وأن كنت غائباً فالغيبية حرام. وسأل أبو بكر الشبلي الجنيد مسألة فقال له: بينك وبين أكابر الناس عشرة آلاف مقام أولها محو ما بدأت به.

فصل: في ذكر آدابهم في حال البداية

أول ما يلزم المريد - بعد الانتباه من غفلته - أن يقصد إلى شيخ من أهل زمانه مؤتمن على دينه معروف بالنصح والأمانة، عارف بالطريق فيسلم نفسه لخدمته، ويعتقد ترك مخالفته، ويكون الصدق حالته. ثم يلزم الشيخ أن يعرفه كيفية الرجوع إلى سيده ويدله على الطريق ويسهل عليه سلوكها ويعلمه شرائع إسلام مما له وعليه وأولي الأشياء به تصفية المطعم والمشرب والملبس لأنه بذلك يجد الزيادة في حالة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((طلب الحلال فريضة بعد الفريضة)) وقال بعضهم: طلب الحلال فريضة على كل، وترك الحلال فريضة على هذه الطائفة إلا على حد الضرورة ثم قضاء ما ضيع من الفرائض ثم رد المظالم على أهلها، لقول النبي صلى الله عليه وسلم ((رد دائق من حرام يعدل عند الله سبعين حجة)) وما كان عليه من ضرب وجرح وقطع فالقصاص، وما كان من غيبة ونميمة أو شتيمة فلاستحلال والاستغفار لصاحبها ثم معرفة النفس وتأديبها بالرياضات، ولها صفتان: أهماك في الشهوات وامتناع من الطاعات فيروضها بالجاهدات: وهي فطم النفس عن مألوفاتها، وحملها على خلاف أهويتها، ومنعها من الشهوات وأخذها بالمكابدات وتجرجع المرارت، بكثرة الأوراد، واستدامة الصوم والنوافل من الصلوات، مع الندم على المخالفات ونقلها عن قبيح العادات ويجتهد أن يتعوض عن النوم سهرا، وعن الشبع جوعا وعن الرفاهية بؤسا فيكون حينئذ من جملة التائبين المختصين بحبة الله تعالى قال الله تعالى ((إن الله يحب التوابين)) (آية 222 من سورة البقرة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((التائب حبيب الله)) (الجامع الصغير) ويكون من الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات روي أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((ليتمنى أقوام أنهم أكثروا من السيئات قيل من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات) (رواه البخاري ومسلم) ويكون من جملة المختصين بدعوة حملة العرش لقوله تعالى: (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك)) إلى قوله ((وذلك هو الفوز العظيم)) (آية 7.8.9 من سورة غافر) فلقد عظم أقدارهم إذ جعل العرش داعين لهم، لئلا هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

والتوبة فرض على جميع المؤمنين لقوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون) (آية 31 من سورة النور) وقوله عز وجل (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) (آية 11 من سورة الحجرات) قال بعض المشايخ غفلتك عن التوبة لذنب ارتكبته اشد من ارتكابه ومن اخترمته المنية قبل التوبة فأمره إلى الله تعالى قال تعالى (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) (آية 6 من سورة الرعد) والآية ووقتها باق ما لم تبلغ الروح الخلقوم، أو يأتي غلق باب التوبة فحينئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ثم يلازم الورع في جميع أحواله، ويعلم أن الله تعالى محاسبه على الاستقصاء. قال الله تعالى: ((وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفي بنا حاسبين)) (آية 47 من سورة الأنبياء) فإذا صح له مقام التوبة والورع وشرع في مقام الزهد فقد آن له لبس المرقعة إن رغب فيها فإرع ما يلزمه في لبسها لئلا يصير هجينا أو يخرج مبهرجا، وقد هت هذه القاعدة وارتفع التمييز وخل النظام ووقع الرضا من جنبة الأتباع للآرقاق، ومن جنبة المتبوعين بالاتباع ومن ذلك ينتشر الفساد ويظهر العناد فلبس المرقعة يجب أن يكون قد أدب نفسه بالآداب، وراضها بالجاهدات والمكابدات وتحمل المشاق وتجرجع المرارت ويكون قد جاوز المقامات وتأدب بالمشايخ الذين يصلحون للاقتداء وصحب رجال الصدق وعرف أحكام الدين وحدوده وأصول المذهب وفروعه ومن لم يكن بهذه الصفة فحرام عليه التصدي للمشيخة والإرادة وقيل: من لم يتأدب برؤية عيوب أفعاله ورعونات نفسه والعمل في إزالتها بجهد لم يجز الاقتداء به، ثم يأخذ نفسه بالجاهدات ويتفقد زيادتها من نقصانها وما لها وعليها ويعرض حاله على شيخه فيما يعرض له وعليه يفي كل وقت فقد قيل: ليس بليب من

لم يصف ما به إلى الطبيب حكى عن الشيخ أبي محمد بن سلمه رحمه الله قال: كل مرید لا یصح له فی الیوم واللیلة کذا مسألة فإنه ما سلك الطريق، وحكى أن جماعه من المریدین حضروا عند الشبلی فوجدهم فی غفلة لا یذكرون مسألة فأنشد:

کفی حزنا بالواله الصب أن یرى منازل من یهوی معطلة فقرا

ثم یطالب نفسه بمنزل المقامات علی ترتیبها ولا ینتقل من مقام إلا بعد تصحیح آدابه ولا یشغل بالزهد إلا بعد الفراغ من الورع وما أشبه ذلك إلى أن تصیر المعاملات إلى القلوب.

وقال بعضهم: العمل بحركات القلوب أشرف من العمل بحركات الجوارح. وقال النبی صلی الله علیه وسلم ((لو وزن إیمان أبی بکر بإیمان أهل الأرض لرجح بهم)) (کنز العمال للمتقی الهندی) وقال صلی الله علیه وسلم ((ما فاق أبو بکر بکثرة الصلاة والصیام ولكن بشيء وقر فی قلبه)) ولهذا ظهر من حاله بعد وفاة رسول الله صلی الله علیه وسلم ما لم یظهر من حال غیره حین صعد المنبر فحمد الله وأثنی علیه، ثم قال: من كان منکم یعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان یعبد رب محمدا فإن رب محمدا حی لا یموت. وقاتل أهل الردة حتى حفظ الإسلام، وقال بعض المشایخ: إذا صارت المعاملات إلى القلوب استراحت الجوارح. فحینئذ یشغل بعمارة الباطن ومباشرة الأحوال ومراعاة الأسرار واعد الأنفس، كما قیل عبادة الفقیر نفی الخواطر.

ولیحذر کل الحذر أن یفسد بدايته بقول المثین ومدح المادحین بل یرجع إلى ما یعرف من نفسه، كما قیل: لیس سماع الألفاظ كمشاهدة الأخطا و یرعود نفسه صیام النهار وقیا اللیل وخدمة الأخوان. قال الجنید رحمه الله: کل مرید لا یرعود نفسه صیام النهار وقیام اللیل فکأنه تمنی ما لا یصلح له ثم یراعی أن ینفق أوقاته فی شرب من الخیر، فإن الوقت إذا فات لا یدرک قال النبی صلی الله علیه وسلم ((لا ینبغی للعاقل أن یرجع إلى ما لا یصلح فی ثلاث: مرمة لمعاش، أو تزود لمعاد، أو لذة فی غیر محرم)) وقال علی رضی الله عنه ینبغی للمؤمن أن یرجع إلى ما لا یصلح فی ثلاث: ساعة یناجی فیها ربه، وساعة یناجی فیها نفسه، وساعة یأتی فیها العلماء الذین یرضونهم بأمر الله وینصحونه، وساعة یناجی فیها نفسه ولذا تم فیما یحل ویجمل.

قال الجریری: دخلت علی الجنید وهو مهتم فقلت له: مالک؟ قال: فاتنی شيء من وردي فقلت له: أعده قال کیف وهي أوقات معدودة: وقال بعضهم من سبق بخطوة لا یدرک إذا كان صادقا والمرید یجب ألا یخلو ظاهره من الأوراد وباطنه من الإرادات إلى أن ترد علیه الواردات فحینئذ یرجع إلى ما لا یصلح له ثم یراعی أن ینفق أوقاته فی شرب من الخیر، فإن الوقت إذا فات لا یدرک قال النبی صلی الله علیه وسلم ((لا ینبغی للعاقل أن یرجع إلى ما لا یصلح فی ثلاث: مرمة لمعاش، أو تزود لمعاد، أو لذة فی غیر محرم)) وقال علی رضی الله عنه ینبغی للمؤمن أن یرجع إلى ما لا یصلح فی ثلاث: ساعة یناجی فیها ربه، وساعة یناجی فیها نفسه، وساعة یأتی فیها العلماء الذین یرضونهم بأمر الله وینصحونه، وساعة یناجی فیها نفسه ولذا تم فیما یحل ویجمل.

ویکره للمرید مفارقة أستاذه قبل انفتاح عین قلبه، علیه أن یرجع إلى ما یصلح له من وردي فقلت له: أعده قال کیف وهي أوقات معدودة: وقال بعضهم من سبق بخطوة لا یدرک إذا كان صادقا والمرید یجب ألا یخلو ظاهره من الأوراد وباطنه من الإرادات إلى أن ترد علیه الواردات فحینئذ یرجع إلى ما لا یصلح له ثم یراعی أن ینفق أوقاته فی شرب من الخیر، فإن الوقت إذا فات لا یدرک قال النبی صلی الله علیه وسلم ((لا ینبغی للعاقل أن یرجع إلى ما لا یصلح فی ثلاث: مرمة لمعاش، أو تزود لمعاد، أو لذة فی غیر محرم)) وقال علی رضی الله عنه ینبغی للمؤمن أن یرجع إلى ما لا یصلح فی ثلاث: ساعة یناجی فیها ربه، وساعة یناجی فیها نفسه، وساعة یأتی فیها العلماء الذین یرضونهم بأمر الله وینصحونه، وساعة یناجی فیها نفسه ولذا تم فیما یحل ویجمل.

وصفة الخليل عليه السلام في قوله تعالى (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) (آية 42 من سورة مريم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((لا يجد أحدكم حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله تعالى وأن تحمدهم على رزق الله تعالى وأن تدمهم على ما لم يؤتلك الله، إن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص ولا يدفعه عنك كراهة كاره)) قال الله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله). (آية 107 من سورة يونس).

فصل: الاجتهاد في معرفة النفس وأخلاقها

ويجتهد في مراعاة نفسه ومعرفة أخلاقها، فإنها الأمانة بالسوء ولا يغفل عنها وأن تنتهي في المعرفة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان مراعيًا لها ومستعيذاً بالله من شرها وكان على بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أنا ونفسي إلا كراعي غنم كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب انتشرت من جانب وقال أبو بكر الوراق النفس مرائية على جميع الأحوال منافقة في أكثر الأحوال مشرقة في بعض الأحوال وقال الواسطي النفس صنم والنظر إليها شرك والنظر فيها عباده وقيل: مثلها في إبداء الحسن وإخفاء القبيح مثل الجمره لوئها حسن وإنها لتحرق وإن عوقبت تشوقت للتوبة وتمت الأوبة وإن عوفيت ركبت هواها وأعرضت قال الله تعالى (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) (آية 51 من سورة فصلت) وقيل: مثل النفس مثل ماء واقف صاف إن حركته تبين ما تحته من الحمأة والنتن. ويعلم أنها طلبت أن تكون لله ضداً في دعواها في مطالبته وذلك أن الله تعالى طالب عباده بالثناء عليه والمدح له فطلبت النفس ذلك وطالب الله العباد ألا يخالفوا أمره ونهيه وطلبت النفس ذلك وطالبهم أن يكون هو المرغوب إليه والمرهوب منه وطلبت النفس ذلك وقيل: النفس لطيفة مودوعة في هذا القالب وهي محل الأخلاق الحمودة، كما أن البصر محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم وقيل: الروح معدن الخير والنفس معدن الشر والعقل جيش الروح والهوى جيش النفس والتوفيق من الله مدد الروح والخذلان مدد النفس والقلب في أغلب الجيشين. ويعلم أن جملة الأمور ثلاثة: أمر بان رشده فيجب متابته. وأمر بان غيه فيجب مجانبته. وأمر مشتبه فيجب مشاركته إلى أن يتبين الرشد من الغي من جهة العلم أو من جهة العقل. وقيل: إذا عرض لك أمران شككت في خيرهما فانظر في أبعدهما من هوائك فإنه خيرهما وعلى المرید أن يجتهد في تبديل أخلاق النفس كالكر والبخل والحرص والآمل والحدة والحسد والرياء والمراء والمنازعة الغيبية والتحرش وسوء الظن والوقاحة وغيرها من الأخلاق الذميمة بضدها من الأخلاق الحميدة وبالله التوفيق.

فصل: في ذكر آدابهم في صحبة بعضهم بعضا

قيل:

وحدة الإنسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من جلوس المرء وحده

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)) وقال صلى الله عليه وسلم ((المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم وفي الكل خير)) وقال صلى الله عليه وسلم ((لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)) وسئل أبو حفص النيسابوري عن أحكام الفقر وآداب الفقراء في الصحبة فقال: حفظ حرمت المشايخ وحسن العشرة مع الأخوان والنصيحة للأصاغر وترك صحبة من ليس من طبقتهم وملازمة الإيثار ومجانبة الادخار والمعاونة في أمر الدنيا والدين.

فصل: مصاحبة الجنس ومن يستفيد منه خيرا

ومن آدابهم أن يصحب الجنس ومن يستفيد منه خيرا وقال بعضهم: أولى الناس بالصحة من يوافقك في اعتقادك وتحشمه في مجالستك قال الله تعالى (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) (آية 73 من سورة آل عمران) ولا يصحب من يخالفه في مذهبه وإن كان قريبا منه، ألا تري نوحا صلى الله عليه وسلم لما قال إن ابني من أهلي) كيف أجيب بقوله تعالى (إنه ليس من أهلك) (آية 45 من سورة هود) وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لما نزل قوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) (آية 22 من سورة المجادلة) "اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا فيحبه قلبي" بل يصحب من يتق بدينه وأمانته ومذهبه وورعه في ظاهره وباطنه.

ومن آدابهم القيام بخدمة الإخوان والأصحاب ورفع المؤمن عنهم واحتمال آذاهم وترك الإنكار عليهم إلا فيما يخالف الشرع ويعرف لكل واحد قدره على مرتبته قال سفيان بن عيينة من جهل أقدار الرجال فهو بقدر نفسه أجهل وقال لا يستخف بأقدار الرجال إلا من لا قدر له ويهدي إلى صاحبه عيوبه ويدله على ما فيه صلاحه وجماله قال النبي صلى الله عليه وسلم ((المؤمن مرآة المؤمن)) (التاج) وقال عمر رضي الله عنه رحم الله امرأ أهدي إلي عيوي ومن آدابهم أن يصحب كل أحد على قدر حاله وما يليق به فالصحة مع المشايخ والكبراء بالاحترام والخدمة والتوقير والقيام بأشغالهم.

والصحة مع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة وبذل المعروف والإحسان والكون معهم على حكم الوقت حكى أن أبا العباس بن عطاء مد رجليه بين يدي أصحابه فقال ترك الأدب بين يدي أهل الأدب وأدب وقال الجنيد: إذا صحت المودة سقطت شروط الأدب وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده أبو بكر وعمر رضي الله عنه فدخل عثمان رضي الله عنه فغطى جسمه وسوي ثيابه وجلس فستل عن ذلك فقال ((ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة)) فحشمة عثمان رضي الله عنه وإن عظمت فالحالة التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما أصفي ولا يداهنهم فيما يخالف المذهب فقد قال ربيع مازالت الصوفية بحجر ما تنافروا فإذا اصطلحوا هلكوا ويخضع عند الحق ويقابله بالقبول وروي أن عمر رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة فقال له العباس: قلعت ما كان النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بيده؟ فقال له: إذا لا يرده إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فأقام على عاتقه ورده إلى مكانه.

والصحة مع الأصغر بالشفقة والإرشاد والتأديب، والحمل على ما يوجهه حكم المذهب ويدهم على ما فيه صلاحهم لا على ما فيه مرادهم وعلي ما يفيدهم لا على ما يحونه وزجرهم عما لا يعينهم ألا تري أن الله تعالى ذم الربانيين والأخبار حين تركوا زجر قومهم عن المنكر بقوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأخبار عن قولهم الآثم وأكلهم السحت) الآية 63 من سورة المائدة.

والصحة مع الأستاذ باتباع أمره وفهمه وهي من حيث الحقيقة خدمة لا صحبه قيل لآبي منصور المغربي كم صحبت أبا عثمان؟ قال خدمته لا صحبته والقيام بخدمة أستاذه واجب والصبر تحت حكمه وترك مخالفته ظاهرا وباطنا وقبول قوله والرجوع إليه في جميع ما يعرض له والتعظيم لحرمته ومجانبة الإنكار عليه سرا وجهرا، قال الله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) (آية 65 من سورة النساء) وقيل: الشيخ في قومه كالنبي في أمته سال بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد فأجاب الجنيد فعارضه في ذلك فقال وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ويكون في صحته كالصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم في تأديبهم بأداب القرآن قال الله تعالى (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) (آية 1 من سورة الحجرات) وقال تعالى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (آية 2 من سورة الحجرات) وقال تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء

بعضكم بعضاً) (آية 63 من سورة النور) وقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمه من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب وقيل من قال لأستاذه لم ؟ لا يفلح أبداً.

والصحة مع خادمة بالتلطف والدعاء وترك الإنكار عليه في ما يبدو منه، قال أنس بن مالك رضي الله عنه خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قهرني ولا فهرني ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله لم ما فعلته وربما كان يخرج معي ويقول ((يا أبا الأذنين)).

والصحة مع الغرباء بالبشاشة والبشر وطلاقة الوجه وحسن الأدب ورؤية فضلهم حيث أكرموا وخصوه من بين أقرانه بالنزول عليه والإمام به ثم يبذل الجهود في خدمتهم وإكرامهم والكون عند مرادهم والصبر على أحكامهم ويقدم مدح الله تعالى الذين يحبون من هاجر إليهم فقال تعالى (والذين آووا ونصروا) (آية 72 من سورة الأنفال) وقال سبحانه وتعالى (أولئك بعضهم أولياء بعض) آية 72 من سورة الأنفال

والصحة مع الجهال بجميل الصبر وحسن الخلق والمداورة والاحتمال والنظر إليهم بعين الرحمة ورؤية نعمة الله عليه حيث لم يقمه مقامهم وإن واجهوه بما يكره يحلم عنهم ولا يجيبهم بأكثر مما أجاب به الأنبياء قومهم حين نسوا إلى الضلالة والسفاهة والجهالة قال تعالى (يا قوم ليس بي ضلالة) آية 61 من سورة الأعراف (ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين) (آية 67 من سورة الأعراف) (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (آية 63 من سورة الفرقان) (سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) (آية 55 من سورة القصص)

ومن كان جهلة أقوي كان الحلم عنه أولى قال الله تعالى (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) (آية 14 من سورة الجاثية) وقال تعالى (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) (آية 186 من سورة آل عمران).

وشتم رجل الشعبي فأفحش، فقال له الشعبي إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر الله لك. والصحة مع الأهل والولد بحسن الشفقة عليهم ومدارقتهم وتأديبهم وحثهم على الطاعة قال الله (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) (آية 6 من سورة التحريم) في التفسير أي أدبوهم وعلموهم وقوهم بذلك من النار ومع الأهل خاصة على حكم الله تعالى (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (آية 229 من سورة البقرة) والإنفاق عليهم من الحلال بالمعروف وتكره صحة الأحداث لما فيها من الآفات ومن ابتلي بذلك وصحبهم على شرط السلامة وحفظ قلبه وجوارحه عنهم وحملهم على الرياضات والتأدب ومجانبة الانبساط قال بعض المشايخ رغبة الصغار في صحة الكبار وتفريق وفضله ورغبة الكبار في صحة الصغار خذلان وحق.

والصحة مع الإخوة بكل ما يقدر عليه من الموافقة وترك المخالفة إلا فيما لا يجوز في الشرع ومجانبة الحقد والحسد ولزوم ما يسلم به بعضهم من بعض.

والصحة مع السلطان بالسمع والطاعة إلا في معصية الله أو مخالفة سنة قال الله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (آية 59 من سورة النساء)

ثم الدعاء له والإمساك عما فيه من قدح، روي عن الحسن أنه قيل له مات الحجاج فقال رحم الله امرءاً عرف زمانه وحفظ لسانه وداري سلطانه. وأما الدخول عليهم فمن كان عادلاً فهو من السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله والنظر إليه عبادة ومن كان ظالماً فالعبد عنه واجب إلا لمضطر إليه أو لناصح ومنكر عليه إذا علم من غالب حاله أنه يسلم عند القرب منه وحكي أن بعض الخلفاء أراد زيارة بشر الحافي فبلغ ذلك بشراً الحافي فقال: لئن ذكرني بعد هذا لأخرجن من جوارحه ببغداد فأمسك عنه. وقال بعض المشايخ من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة وقيل تقرب الأشرار إلى الأخيار صلاح الطائفتين وتقرب الأخيار إلى الأشرار فتنه الطائفتين ومن اضطر إلى الدخول عليهم دعا لهم بالصلاح وذكرهم وعظم وأنكر حسب طاقته ومن المشايخ من تقرب إليهم لطلب مصالح الناس وروي عن زيد بن أسلم أنه قال كان نسي من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس وقال ابن عطاء لأن يراني الرجل سنين ليكتسب جاهاً يعيش فيه مؤمناً أنجي له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه والصحة مع الكافة كصحة أبي ضمضم روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((أبعجز أحدكم أن يكون كأي ضمضم كان إذا أصبح وأمسى يقول: اللهم إني قد وهبت نفسي وعرضي لك اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك فمن شتمني لا أشتمه ومن ظلمني لا أظلمه)) قال أبو عبد الله بن خفيف دخلت مكة وقصدت أبا عمرو الزجاجي فسلمت عليه وجلست عنده وجري كلام فأخذ في تمزيقي فلما أكثر قلت له: أتعني بهذا كله ابن خفيف؟ قال بلي قلت تركته بشيراز فبسم وقال شاه بن الشجاع من نظر إلى الخلق بيمينه طالت خصومته معهم ومن نظر إلى الخلق بعينه الحق عذرهم فيما هم فيه وقل اشتغاله بهم.

ثم على كل جارحة أدب تختص هي به قال الله تعالى (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً) (آية 36 من سورة الإسراء) قال بعض المشايخ حسن الأدب مع الله ألا تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضا الله تعالى.

فأدب اللسان أن يكون رطباً بذكر الله عز وجل أبداً وبذكر الإخوان بالخير والدعاء لهم وبذل النصيحة والوعظ ولا يكلمهم بما يكرهون ولا يغتاب ولا ينم ولا يشتم ولا يخوض فيما لا يعنيه وإذا كان في جماعة تكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعينهم فإذا أخذوا فيما لا يعينهم تركهم وأمسك. ويتكلم في كل مكان بما يوافق الحال فقد قيل: لكل مقام مقال وقيل: خلق الله اللسان ترجماناً للقلب ومفتاحاً للخير والشر. وقيل: إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك. ويلزم الصمت فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل قال النبي صلى الله عليه وسلم ((وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)).

وأدب السمع ألا يسمع إلى الفحش والحنا والغيبة والنميمة وكل منكر. كما قيل:

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا

بل يستمع إلى الذكر والوعظ والحكمة وما يعود عليه بالفائدة دنيا ودنيا ويحسن الإصغاء إلى من يكلمه.

وأدب البصر الغض عن الحرام وعن عيوب الناس والإخوان والمنكرات والحرمات لأن الله يقول ((يعلم خائنة الأعين تخفي الصدور)) (آية 19 من سورة غافر) وقد قيل: من طاع طرفه تابع حنفيه. وقيل: من غض طرفه تم طرفه. وقيل: من كثرت لحظاته دامت حسراته ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته وجميل صنعه عارياً من حظوظ النفس الأمارة بالسوء حكى عن بعضهم أنه قال: نظرت إلى شخص نظرة شهوة فرأيت في المنام قائلاً يقول لي: الدنيا دارى والخلائق فيها عبيدي وإماني فمن نظر إلى واحد منهم بغير حق فقد خانني. فانتبهت وأليت على نفسي أن لا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا على حد الأمانة. وحكا عن أبي يعقوب النهرجوري أنه قال: رأيت في الطواف إنساناً بفرد عين وهو يقول: أعوذ بك منك فقلت: ما هذا الدعاء؟ فقال: اعلم أنى مجاور منذ خمسين سنة فرأيت يوماً شخصاً فاستحسنته فإذا لطمة وقعت على عيني فسالت عيني هناك على خدي فقلت: أه فقيل: لحظة بلطمة ولو زدت لزدناك. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى صلى الله عليه وسلم: ((إياك أن تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والثانية عليك)). (المعنى عن حمل الأسفار).

وأدب القلب مراعاة الأحوال السنية الحمودة ونفي الخواطر الردية المذمومة والتفكير في آلاء الله ونعمائه وعجائب خلقه قال الله ((ويتفكرون في خلق السموات والأرض)) (آية 191 من سورة آل عمران) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((تفكر ساعة خير من عبادة سنة)) ومن أدب القلب حسن الظن بالله تعالى وبجميع المسلمين وتطهيره من الغل والغش والحسد والحيانة وسوء العقيدة فأما من جنابات القلب قال الله تعالى ((إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً)) (آية 36 من سورة الإسراء) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((ألا إن في الجسد مضغاً إذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت بفسادها سائر الجسد ألا وهي القلب)) (صحيح مسلم) وقال سري بن المغلس السقطي القلوب ثلاثة، قلب كالجليل لا يحركه شيء وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح تميل بها يمينا وشمالا وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح لولا يثبت.

وأدب اليدين البسط بالبر والإحسان وخدمة الإخوان وألا يستعين بها على معصية.

وأدب الرجلين السعي بهما في صلاح نفسه وإخوانه وألا يمشي في الأرض مرحاً ولا يفتال ولا يبتخر ولا يزهو إنما مما تبغضه إلى الله تعالى ولا يستعين بهما على المعاصي.

ثم إن أول الصحبة معرفة ثم مودة ثم ألفه ثم عشرة ثم محبة ثم صحبة ثم أخوة وقيل غذاء النفوس في العشرة.

وإدب القلوب في الصحبة والصحة لا تكون إلا باتفاق البواطن قال الله تعالى في صفة المنافقين (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى). (آية 14 من سورة الحشر)

والصحبة إذا صحت شرائطها فإنها أجل الأحوال ألا تري أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أجل الناس علماً وفقهاً وعبادة وزهداً وتوكلاً ورضاً فلم ينسبوا إلى شيء من ذلك غير الصحبة التي هي أعلاها ومن آدابهم ألا يجري في حديثهم هذا لي وهذا لك ولو كان كذا لم يكن كذا ولعل وعسى ولم فعلت ولم لا تفعل وما يجري مجراها فإنها من أخلاق العوام قال إبراهيم ابن شيبان كنا لا نصحب من يقول فعلي ولا تجري بينهم

الإعارة والاستعارة وقال بعضهم الصوفي سلا يعير ولا يستعير ولا تجري بينهم المخاصمة ولا المجادلة ولا الازدراء ولا المزاحمة والمغالبة والغيبة والوقية والنيضة والاستهزاء بل يكون كل أحسد منهم للكبير كالولد وللنظير كالأخ وللصغير كالوالد وللأستاذين كالمملوك.

ومن آدابهم إذا اجتمعوا أن يقدموا أحدهم ليكون مرجعهم إليه واعتمادهم عليه ويكون أرجحهم عقلاً ثم أعلاهم همة ثم أعلاهم حالاً ثم أعلمهم بالمذهب ثم أسنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليوم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن استوتوا فآفقههم في الدين فإن استوتوا فأشرفهم فإن ساووا فأسنهم فإن استوتوا فأقدمهم هجرة) وكان صلى الله عليه وسلم يقدم أهل بدر على غيرهم روي أنه كان جالساً في صفة ضيقة فجاء قوم من البدرين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه فأقام النبي صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر من ذلك المجلس فجلسوا مكانهم فاشتد عليهم فأنزل الله تعالى (وإذا قيل انشروا فانشروا) (آية 11 من سورة المجادلة) ثم أحسنهم خلقاً ثم أقدمهم هجرة ثم أتمهم أدباً ثم أسقهم بلقاء المشايخ حكى أن علي بن بندار الصيرفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائراً له من نيسابور فتماشيا فقال له أبو عبد الله تقدم فقال بأي عذر؟ قال: بأنك لقيت الجنييد وما لقيته.

ويخدمهم أصدقهم نية وشفقة وأحلمهم وأقواهم قلباً وأكثرهم ديانة وأمانة وصيانة وأقلهم اهتماماً بنفسه وذويه، فالخدمة الدرجة الثانية من الشيخوخة كما ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ((سيد القوم خادمهم)) وقيل إذا صحبت إنساناً فانظر عقله أكثر مما تنظر دينه فإن دينه له وعقله له ولك ولا تصحب من كل أكثر همه الدنيا والنفس والهوى قال الله تعالى (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) (آية 29 من سورة النجم) (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) (آية 28 من سورة الكهف) ولا يذكر عيوب الناس فقد قيل من ذكر عيوب الناس شهد على نفسه فإنما يذكر مقدار ما فيه منها. سئل أبو عثمان الحيري عن الصحبة فقال: توسع على أخيك من مالك ولا تطمع في ماله وتنصفه من نفسك ولا تطلب الإنصاف منه وتكون تبعاً له ولا تطلب أن يكون تبعاً له وتستكثر ما اليك منه وتستقل ما منك إليه قال محمد بن داود الدقي قلت للزقاق من أحتجب؟ فقال: من يعلم منك مثل ما يعلم الله ثم تأمنه على ذلك وقال بعضهم ما أوقعني في البلاء إلا صحبة من لا أحتشمه. وقيل ليس في اجتماع الإخوان أنس لوحشة الفراق وقيل الشرف في ثلاث إجلال الكبير، ومدارة النظير ورفع النفس عن الحقير وقيل الجلوس ثلاثة جلس تستفيد منه فلازمه وجليس تفيده فأكرمه وجليس لا تستفيد منه ولا تفيده فاهرب منه.

ومن آدابهم ترك التيه والصولة قال أبو علي الروذباري: الصولة على من فوقك قحة وعلى من هو مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز. وقال بعضهم: من ولى ولاية فناه فيها أحبر أن قدره دونها. ومن تواضع فيها أخبر أن قدره فوقها. وقيل: إن عجب المرء بنفسه حد فساد عقله قال الله تعالى ((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً)) (آية 83 من سورة القصص). وليحذر التأدب أن يحقر أحداً من المسلمين فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)) (رواه مسلم). وقال صلى الله عليه وسلم ((من استذل مؤمناً أو مؤمنة أو حقره لفقره وقلته ذات يده شهره الله يوم القيامة ثم يفضحه)). وقال بعضهم: من رضي به الله عبداً فأرض به أخاً. وإذا نزل به أحد من إخوانه أو جماعة قدم إليهم ما حضره من الطعام والشراب قل كثر ألا ترى أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه ضيفه المكرمون ما لبث أن جاء بعجل حينئذ فقربه. روى عن أبي البخري أنه قال نزلنا على سلمان بالمدائن فقرب إلينا خبزاً وسمكاً وقال: كلوا فمأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التكلف ولولا ذلك لتكلفت لكم (المستدرك على الصحيحين). ولما ورد أبو حفص على الجنييد تكلف في خدمته فأنكر عليه وقال: لو دخلت خراسان علمناك الفتوة. فقيل له في ذلك فقال: صير أصحابي مجانين يقدم إليهم ألوان الطعام واللباس والطيب كل يوم وإنما الفتوة عندنا ترك التكلف وإحضار ما حضر.

ثم إذا حضرك الفقراء فأخدمهم بلا تكلف حتى إذا جمعت جاعوا وإذا شبعت شبعوا حتى يكون مقامهم وخروجهم عندك سواء. قال يوسف بن الحسين: قلت لذي النون: من أصحب؟ قال: من إذا مرضت عادك وإذا أذنبت تاب لك. وأنشد:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتكم فنعندر

وقيل: ليس بصاحب من تقول له قم. فيقول: إلى أين. ويجتنب البذاء فإنه يهيج البغضاء قال الله عز وجل ((قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر)) (آية 118 من سورة آل عمران).

وقال بعضهم: الناس ثلاثة أصناف: صنف كالغذاء لا يستغنى عنهم وصف كاللدواء يحتاج إليهم في الأحيان وصنف كاللداء يجب الاحتماء منهم وما يقرب منهم.

ويجتنب صحبة الأشرار فقد قيل: مصاحبة الأشرار خطر ومن صاحبهم فقد بالغ في الغرر وإنما مثله كمثل راكب البحر إن سلم ببدنه من التلف لم يسلم بقلبه من الحذر. وقيل: من أكمل السعادة والرشاد صيانة الحر نفسه عن الأوغاد وقيل: من يصحب صاحب سوء لم يسلم ومن يدخل مدخل سوء يتهم. وقيل كل واحد يعرف بقرنائه وينسب إلى خلطائه. وروى أنه وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قوم فقال ((ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)) (الجامع الصغير).

فصل: في ذكر آدابهم في الأسفار وفضلها

قال الله تعالى ((رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)) (آية 37 من سورة النور) سئل النبي صلى الله عليه وسلم: من هم فقال ((هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((سافروا تصحوا وتغنموا)) (الجامع الصغير)) وقال: الغريب شهيد ويفسح للغريب في قبره كبعده عن أهله)) (رواه الإمام أحمد في مسنده) وقال أبو حفص النيسابوري: ينبغي للمسافر ثلاثة أشياء: ترك تدبير الزاد وتقدير الطرق ويعلم أن الله حافظه.

وأفضل السفر الجهاد ثم الحج ثم زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم. وقال عليه الصلاة والسلام ((وفد الله ثلاثة: الحاج والغازي والمعتزم ثم زيارة المسجد الأقصى)) (رواه النسائي) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مواضع: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)) (رواه الإمام أحمد).

ثم لطلب العلم ثم لزيارة المشايخ والإخوان قال النبي صلى الله عليه وسلم ((يقول الله تعالى: حقت محبتي للمتحابين في المتزاورين)) (رواه الإمام أحمد) وفي الحديث عن أبي رزين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((زر في الله فإن من زار في الله شيعة سبعون ألف ملك يقولون: اللهم صل كما وصله فيك وناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة مقعدا)) (حلية الأولياء).

ثم لرد المظالم والاستحلال ثم لطلب الآثار والاعتبار ثم لرياضة النفس وحمل الذكر ولا يسافر للنزهة والبطر والرياء والجولان في البلاد لطلب الدنيا على متابعة الهوى قال أبو تراب النخشي: ليس شيء أضر على المريدين من أسفارهم على متابعة هواهم وما فسد من فسد من المريدين إلا بالأسفار الباطلة قال الله تعالى ((ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورتاء الناس)) (آية 47 من سورة الأنفال) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((يأتي على الناس زمان يحج أغنياء أمتي للنزهة وأوساطهم للتجارة وقراؤهم للرياء وفقراؤهم للمسألة)) وقال عمر رضي الله عنه: ألا إن الوفد كثير والحاج قليل.

ولا يسافر بغير رضا الوالدين والأستاذ ولا بغير إذنه حتى لا يكون عاقاً في سفره فلا يجد بركات أسفارهم وإذا كان في جماعة مشى مشى أضعفهم ووقف لوقوف الرفيق ولا يؤخر الصلاة عن أوقاتها ما أمكن ويؤثر المشي على الركوب إلا عند الضرورة فإن سفره للرياضة وطلب الزيارة وإذا كان في جماعة بذل جهده في خدمتهم ما أمكن ويرفع عنهم مؤنته فقد روي عن عدي بن حاتم أنه يقال: قلت: يا رسول الله أي الصدقات أفضل؟ فقال عليه الصلاة والسلام ((خدمة الرجل أصحابه في سبيل الله)).

ومن آدابهم إذا دخل بلاداً فإن كان فيه شيخ قصد زيارته إن لم يكن يقصد موضع الفقراء، وإن كان فيها مواضع قصد أقدمها وأكثرها جمعاً وأعظمها حرمة ويتفقد موضع الطهارة خصوصاً، والمياه الجارية فيه فيؤثر النزول عليها دون غيرها، وإن لم يكن لهم موضع ولا جمع نزل على أكثرهم محبة لهذه الطائفة وأكثرهم إيماناً بهم وميلاً إليهم وإذا دخل ديرة تنحي ناحية ونزع خفية يبدأ باليسرى في النزوع وباليميني في اللبس يفقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ((إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليميني وإذا نزع فليبدأ باليسار)) (رواه مسلم في صحيحه) ثم يقصد موضع الطهارة ويتوضأ ثم يصلي ركعتين وإن كان هناك شيخ مقصود قصده وزاره وقبل رأسه إلا أن يكون حدثاً فيقبل يده روي عن كعب بن مالك أنه قال: لما نزلت توبتي آتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده وحكي أن أبا عبد الله بن خفيف قبل يد الحسين بن منصور وهو في الحبس فقال لو كانت اليد يدنا لمنعناك ولكن اليد يد تبوسها اليوم وتقطع غدا.

ثم يجلس عند الشيخ ساعة ولا يتكلم إلا أن يسأله عن شيء فيجيبه عن سؤاله ولا يبلغه سلاماً ولا يذكر أحداً إلا أن يكون نظيراً له في الحال أو السن فيجوز ذلك ثم يرجع إلى موضعه وعلي المقيمين أن يسلموا عليه فحق القادم أن يزار إلا أن يكون بمكة فإن عليه زيارة المجاورين حرمة الحرم ثم يقدم إليه ما حضر من الطعام من غير تكلف فقد قيل: "الأدب مع الضيف أن يبدأ بالسلام ثم بالإكرام ثم بالطعام، ثم بالكلام، كصنع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع ضيفة الكرام قال تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ)

(آية 69 من سورة هود) ولا يسأل عن أحوال وأخبار الدنيا وأهلها مما لا يعنيه بل عن أحوال المشايخ والأصحاب والإخوان المتعاونين على أعمال الخير.

ويجب على المسافر استصحاب ركوة أو كوز للطهارة أولي قيل كان بعض المشايخ والأصحاب والإخوان إذا صافحه المسافر تفقد حمل الركوة في يافته وأصابه فإن وجده أحسن قبوله وإلا ازداده ورده وقال بعضهم إذا رأيت الصوفي وليس معه ركوة ولا كوز فاعلم أنه عزم على ترك الصلاة وكشف العورة شاء أو أبي.

ويستحب للمسافر استصحاب العصا والإبرة والخيط والمقص والموسي ونحوها، فإن ذلك مما يستعين به على أداء الفرائض كما يجب. وإذا أراد السفر فمن الأدب أن يطوف على إخوانه ويعرفهم خروجه ويودعهم ويستحب لمن هو في صحبتهم تشييعه كذا كان دأب المشايخ. ويجتهد ألا يفوته شيء من الأوراد وخاصة الواجبات قال أبو يعقوب السوسي يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره وإلا فلا يسافر عليهم يسوسه وورع يحجزه وخلق يصونه ويقين يجمله وسئل روم عن أدب المسافر فقال، لا تسبق همته خطواته وحيثما وقف قلبه يكون منزله.

فصل: في ذكر آدابهم في اللباس

قال الله تعالى (وثيابك فطهر) (آية 4 من سورة المدثر) قال بعض المفسرين أي فقصر روي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((إن الله يحب كل متبذل لا ييأى ما لبس)) (الجامع الصغير) وكان عمر رضي الله عنه يقطع من كفه ما جاوز الأصابع وقال بعضهم الفقير الصادق أي شيء لبس يحسن عليه ويكون له فيه الملاحظة والمهابة.

ومن آدابهم في ذلك أن يكونوا مع الوقت يلبسون ما يجدون من غير تكلف ولا اختيار ويقتصرون على ما يؤدون به الفرض من ستر العورة وما يدفع القر والحر فهي ما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم من الدنيا وقال: إنها ليست من الدنيا ويترمون بكثرة اللباس ويواسون بالفضل، قال النبي صلى الله عليه وسلم ((ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل غسل ثوبه فلم يجد خلفاً، ورجل لم ينصب له على مستوقدة قدران ورجل دعا بشراب فلم يقل له أيها تريد)) (الجامع الصغير) وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء زوجين. ويجتهدون في النظافة والظرافة قال النبي صلى الله عليه وسلم ((النظافة من الإيمان)) (أحياء علوم الدين) ورأى على بعض الوفود ثوبا وسخا فقال: ما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه)).

ويكرهون لبس الشهرة من الثياب ويتبركون بثياب المشايخ روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته مع أصحابه فامتأ البيت وجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد موضعا وقعد خارج البيت فأبصره النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ جرير الثوب ووضع على وجهه وقبله واختار بعضهم الاقتصار على خرقتين كهينة الحرم وكره الجمهور منهم ذلك إلا للمحرم أو بمكة لما فيه من الشهرة وإظهار الزيادة على الأقران. ويكره لبس الفرجية أيضا إلا للمشايخ فإنه بمنزلة الطيلسان والسجادة والقلائس للمشايخ والبرانس للمريدين ويستحب الاقتصار على ثوب واحد حكى الجريري قال: كان ببغداد فقير لا نكاد نجده إلا في ثوب واحد شتاء وصيفا فستل عن ذلك فقال: كنت مولعا بكثرة الثياب فرأيت في المنام كأني دخلت الجنة فرأيت جماعة من أصحابنا على مائدة فقصدتهم فحال بيني وبينهم ملائكة وقالوا هؤلاء أصحاب ثوب واحد ولك أنثواب، فانتبهت ونذرت أل ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى. وقيل للجنيدي: قد كثرت المرقعات فقال أن طلاب السلوك يرونكم بأبصارهم وأنتم في السير مع الله تعالى. وكان أبو حاتم العطار إذا رأى أصحاب المرقعات يقول: يا سادتي نشرتم أعلامكم وضربتم طولكم فليت شعري في اللقاء أي رجال تكونون وقال على بن بندار ثوب استجيز فيه الصلاة أكره أن أبدله للقاء الناس بخير منه وقال أبو حفص الحداد إذا رأيت ضوء الفقير في ثوبه فلا ترج خير ه.

فصل: في ذكر آدابهم في الأكل

قال الله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) (آية 31 من سورة الأعراف) والإسراف حرام وقال الله تعالى (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) (آية 28 من سورة الحج).

قال بعضهم: أدب الله تعالى عباده ألا يطعموا الفقير إلا مما يأكلون وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((إذا أكل أحدكم فليقل بسم الله فإن نسي في أوله فليقل إذا ذكر بسم الله أوله وآخره) (سنن ابن ماجه) وقال صلى الله عليه وسلم وأشار إلى القصة (كلوا من حواشيها ولا تأكلوا من وسطها فإن البركة تنزل في وسطها) (سنن ابن ماجه).

ومن آدابهم: ترك الاهتمام بالرزق وقلة الاشتغال بطلبه وجمعه ومنعه وادخاره قال الله تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم) (آية 60 من سورة العنكبوت) أي لا تدخروا وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ما كان يدخر شيئا لغد ولا يكثر ذكر الطعام فإن ذلك من الشره حكى عن روم أنه قال: لم يخطر ببالي ذكر الطعام عشرين سنة حتى يحضر ويقصد عند تناوله سد الجوعه ويعطي النفس حقها دون حظها فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إن لنفسك عليك حقا فإن منعتها حقها ظلمتها)) وقيل لبعض المشايخ كيف يتناول القوم الطعام ؟ فقال: تناول العليل للدواء يرتجي به الشفاء ومنعها من الشره والنهم مراعي لقوله صلى الله عليه وسلم ((ما مليء وعاء شر من بطن أبن آدم فإن كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس)) وقيل: أكل الطعام لغير القوام كان انتفاعه به السقام.

ولا يعيب طعاما ولا يمدحه روى أبو هريرة رضي الله عنه قال (ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه) (رواه مسلم) وقال صلى الله عليه وسلم ((أذيبوا طعامكم بذكر الله تعالى والصلاة ولا تناموا عليه فتنفسوا قلوبكم)). وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود صلى الله عليه وسلم (ما بال الأقوياء وميادرتهم الشهوات، إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقي، إن القلوب المعلقة بالشهوات عقولهم محجوبة عني).

حكى أن بشر بن الحارث رئي في السوق فستل عن ذلك فقال: أن نفسي تطالبي منذ سنين بخيارة فمئنتها ورضيت الآن بالنظر إليها فأعطيتهما. ولا يكون لاكلهم وقت معلوم ولا يتكلفون ولا يختارون الكثير الرديء على القليل النظيف الطيب قال الله تعالى (فلينظر أيها أركي طعاما فليأتكم برزق منه وليتألف) (آية 19 من سورة الكهف) ولا يلقم بعضهم بعضا وإذا حضر الطعام فلا يقول بعضهم لبعض: كل فإن الكل فيه سواء إلا المشايخ لمن دوهم على سبيل البسط لهم وترغيبهم في الخير عند احتشامهم هذا لهم خاصة وأما غيرهم من طبقات الناس فمن أدهم عرض الطعام عند الحضور واستدعاء الحاضرين إليه سمعت والدي رحمه الله يحكى عن الشيرواني رحمه الله أنه قال: كان عبد الله بن الصامت من المشايخ وكان لا يدعو أحدا إلى الطعام فحضرت يوما عنده فقلت: العلم يدعوننا إلى عرض الطعام الإحضار فقال: إن الحكم إلا لله. فسكت. ولا يأكلون إلا مما يعرفون أصله ويتزهون عن أكل طعام الظلمة والفسقة وإن كان من وجهه روى عمران بن الحصين قال: لمانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إجابة طعام الفاسقين. وينصرفون عن قبول إرفاق النسوان وأكل طعامهن ولا يكرهون الكلام عند الطعام فقد قيل: إن ترك ذلك من فعل الخوس.

ثم من الأدب عند تناول الطعام التشمير والجلوس على الرجل اليسرى والتسمية والأكل بثلاث أصابع ومما يليه وتصغير اللقمة وتجويد المضغ ولعق الأصابع قال جابر: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلعق الأصابع والقصاع. وقال ((إن أحدكم لا يدري في أي طعامه البركة)) (صحيح مسلم).

ويترك النظر إلى لقمة صاحبه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((لا يبين أحدكم بصره لقمة صاحبه بالنظر وإذا فرغ من الطعام قال: الحمد لله الذي جعل أرزاقنا أكثر من أفواتنا)). وليس من الطرافة أن يغمس يده في الطعام بحيث يتلطح به. ويكره الأكل في اليوم مرتين. وقال

بعض المشايخ: الأكل مع الإخوان بالانبساط ومع الأجانب بالأدب ومع الفقراء بالإيتار. وقال الجنيد: مؤاكلة الإخوان رضاع فانظروا من تذاكلون. ويختارون الاجتماع على الأكل لقوله صلى الله عليه وسلم ((خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي)) (مجمع الزوائد للهيثمي) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال ((الأكل مع الإخوان شفاء)) وقال صلى الله عليه وسلم ((شر الناس من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفسه)) (الجامع الصغير) وإذا أكل مع جماعة لا يمسك عن الأكل ما داموا يتناولونه لاسيما إذا كان متقدمهم روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان. إذا أكل مع جماعة كان آخرهم أكلا وسئل بعض المشايخ عن الأكل الذي لا يضر قال: أن تأكل بالأمر لا بالهوى. وقال إبراهيم بن شيان: منذ ثلاثين ما أكلت شيئاً بشهوتي.

فصل: أكثر الناس شبعاً أكثرهم جوعاً يوم القيامة

روى أن رجلاً تجشأ عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال ((كف عنا جشأك فأكثرهم شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة)) (سنن ابن ماجه). وقال الحسن: كان بلية آدم في أكلة وهي بليتكم إلى يوم القيامة. وقال سهل بن عبد الله: لأن أترك من عشائي لقمة أحب إلى من إحياء ليلة. وقال يحيى بن معاذ: لو كان الجوع يباع في الأسواق لما كان لطلاب الآخرة أن يشتروا سواه. وقال: لو تشفعت إلى نفسك بالملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين في ترك شهوة لردتهم أجمعين ولو توسلت إليها بالجوع لانقادت لك وصارت من الطائعين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى جالساً فقلت ما أصابك؟ قال: الجوع فبكيك فقال: لا تبك إن شدة القيامة لا تصب الجائع إذا احتسب ذلك في الدنيا)) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ((من أحس من نفسه نشاطاً فليذهبها بالجوع والعطش)). ويكره الانتظار عند حضور الطعام وقد قيل: قلوب الأبرار لا تحمل الانتظار ويكره تفويت الأوقات بالاشتغال بالأكل حكى عن بعضهم أنه كان يفطر على حسوة يحسوها ويقول: الوقت أعز من أن يشتغل بالأكل. وكره أكثرهم تلقيم من يخدمهم مما أيديهم لا سيما إذا كان ضيفاً فإنه التصرف فيما قدم إليه فقال بعضهم: يملكه بالإحضار بين يديه وقال بعضهم بالتناول وقال بعضهم: بالوضع في الفم وقال بعضهم: باستيفاء الأكل بالبلع. وقال الجنيد: تنزل الرحمة على الفقراء عند الطعام فأنهم لا يأكلون إلا بالأيثار وقال بعض المشايخ: واجب على المضيف ثلاثة أشياء وعلى الضيف ثلاثة أشياء فأما الذي على المضيف أن يطعمه من الحلال ويحفظ عليه مواعيت الصلاة ولا يجبس عنه ما قدر عليه من الطعام وأما ما على الضيف أن يجلس حيث يجلس وأن يرضى بما قدم إليه وأن لا يخرج إلا بعد الاستئذان روى عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن من السنة أن يشيع الضيف إلى باب الدار)) (سنن ابن ماجه).

فصل: في ذكر آدابهم في النوم

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((من نام حتى أصبح بال الشيطان في أذنيه)) ومن أدهم في ذلك أن يجتنب النوم بين جماعة قعود فإذا غلبه النعاس بينهم فإذا أن يقوم أو يدفع عن نفسه ذلك بمحادثة أو غيرها ولا يتعود الانبطاح فإن كان ممن له غطيط فيتعود النوم على الجنب وليستلقى ويجتهد أن يكون نومه لله وبالله ولا يكون نائماً عن الله فأما النائم لله فهو القاصد إلى أخذ بلغة من النوم يستعين بها على أداء الفرائض وتحصيل النوافل خصوصاً آخر الليل لما روى في الحديث ((أن الحق عز وجل يقول آخر الليل: هل من داع فأستجيب له هل من سائل فأعطيه سؤله هل من مستغفر فأغفر له)) (رواه الإمام مسلم). وأما النائم بالله فهو العارف الذاكر من لا تأخذه سنة ولا نوم إلى أن يرد عليه النوم من غير اختياره وهم الذين يبيتون لرهم سجداً وقياماً وأما النائم عن الله فهو الغافل عنه كما جاء في مناجاة داود صلى الله عليه وسلم قوله ((كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يجب خلوات حبيبه فيها أنا مطلع على قلوب أحبائي)).

ومن آدابهم النوم على الطهارة والاضطجاع على الشق الأيمن ويقول باسمك اللهم وضعت جنبي وباسمك أرفعه وباسمك أرفعه اللهم إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم فني عذابك يوم تبعث عبادك ويدر الله كلما انتبه، فإن توضأ وصلى ركعتين ثم نام كان أولي ويكره النوم بعد صلاة الصبح وبعد المغرب وقيل: من أراد قلة النوم فليجتنب شرب الماء إلا قدر تسكين العطش ومن كان بين جماعة فناموا فإذا أن يوافقهم وينام أو يقوم عنهم وتستحب القيلولة، ليستعان بها على قيام الليل، وقيل: النوم أول النهار خرق، وأوسطه خلق، وآخره حق. وكان بعضهم لا يضطجع من الليل حياء من الله تعالى ودام على ذلك ثلاثين سنة، إنما يستند إلى الجدار عند غلبة النوم، ويصوم النهار. وقال الجنيد: أتى على السري نيف وثلاثون سنة ما رئي مضطجعا إلا في علة الموت وحكي أن أبا يزيد مد رجله في الخراب فنودي: من جالس الملوك بلا أدب تعرض للقتل.

فصل: في ذكر آدابهم في السماع

قال الله تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تري أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)(آية 83 من سورة المائدة) وقال تعالى (الذين يستمعون القول فيستمعون أحسنه)(آية 18 من سورة الزمر) وقال تعالى (فهم في روضة يجرون)(آية 15 من سورة الروم) قال مجاهد: يسمعون وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((ما أذن الله لشيء كإذنه لني حسن الصوت بالذكر)) (صحيح مسلم). وروى أنه قرئ بين يديه: (فكيف إذا جننا من كل أمة بشهيد وحننا بك على هؤلاء شهيداً (آية 41 من سورة النساء)) فبكى طويلاً. وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان عندي جارية تسمعي فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على حالها ثم دخل أبو بكر وهي على حالها ثم دخل عمر ففرت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يضحك يا رسول الله؟ فحدثه فقال: لا أخرج حتى أسمع ما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأمرها فأسمعه.

وسئل ذو النون المصري عن السماع فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقيق ومن أصغى إليه بنفس تزنديق. وقال السري: تطرب قلوب الحبين عند السماع وتخاف قلوب التائقين وتلهب قلوب المشتاقين وقيل: مثل السماع مثل الغيث إذا وقع على الأرض تصيح مخضرة كذلك القلوب الزكية يظهر مكون فوائدها عند السماع. وقيل: السماع يحرك ما تنطوي عليه القلوب من السرور والحزن والخوف والرجاء والشوق وربما يحركه إلى البكاء وربما يحركه إلى الطرب. وقيل السماع فيه حظ لكل عضو فرما يبكي وربما يصرخ وربما يصفق وربما يرقص وربما يغمى عليه. وقيل أهل السماع ثلاثة: مستمع بربه ومستمع بقلبه ومستمع بنفسه قال بعض المشايخ: لا يصح السماع إلا لمن فبت حظوظه وبقيت حقوقه وهدت بشريته. وحكا عن بعضهم قال رأيت الخضر عليه السلام فقلت: ما تقول في السماع الذي عليه أصحابنا؟ فقال: هو الصفاء الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. وقيل السماع مقدحة سلطانية لا تقع نيرانها إلا فيمن قلبه محترق باخبة ونفسه محترقة بالجاهد.

ومن آدابهم: أن لا يتكلفوا فيه ولا يكون لهم وقت معلوم لذلك ولا يسمعون للتطايب والتلهي ثم يسمعون ما كان داخلاً في أوصاف التائبين والخائفين والراجين وما يحنهم على المعاملة ويجدد لهم صدق الإرادة ومن لا يعلم ذلك فعليه أن يقصد من يؤديه فيه. وقيل للنصراياذي: إنك مولع بالسماع. فقال: نعم هو خير من أن تقعد وتغتاب فقال له أبو عمرو بن نجاد: هيهات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب الناس. وقال أبو على الروذباري: بلغنا في هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف إن ملنا ففي النار. وليس من الأدب استدعاء الحال والتكلف للقيام إلا عن غلبة حال ترد فتزعج أو يكون على سبيل مساعدة لصادق أو مطاوعة من غير تسامر ولا إظهار حال. وترك ذلك أولى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعظ فصعق رجل من جانب المسجد فقال: من ذا الملبس علينا ديننا؟ إن كان صادقاً فقد شهر نفسه وإن كان كاذباً محقه الله.

ويكره للشبان القيام بمحضرة المشايخ وإظهار الحال حكى أن شاباً كان يصحب الجنيد وكلما سمع شيئاً زعق وتغير فقال له ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحني فكان بعد ذلك يضبط نفسه وربما كان يقطر منه من كل شعرة قطرة عرق حتى كان يوماً من الأيام زعق زعقة خرجت فيها روحه.

ولا رخصة للأحداث في القيام والتحرك أصلاً وأكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع وإذا كان الوقت جداً فلا يجوز للتكليف المداخلة والمزاومة على طريق الموافقة والمساعدة أيضاً.

حكى أن ذا النون المصري دخل بغداد فدخل عليه جماعة ومعهم قوال فاستأذنوا أن يقول شيئاً فأذن لهم. فأنشد يقول:

صغير هواك عذبني فكيف به إذا احتنكا
أما تنظر لمكتتب إذا ضحك الخلي بكى
وإن جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا

فطاب قلبه وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبينه ولا يقع على الأرض ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون وقال قال تعالى ((الذي يراك حين تقوم)) (آية 218 من سورة الشعراء) فجلس الرجل.

والسكون مع حضور القلب وجمع الهمة والوقوف على أحوال المستعلمين أولى من المداخلة لأنه محل الاستقامة والتمكين. والإنصات من أدب الحضرة قال الله تعالى ((فلما حضروه قالوا أنصتوا)) (آية 29 من سورة الأحقاف). وقال تعالى ((وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً)) (آية 108 من سورة طه) وإذا انعقد مجلس السماع يبدأ بالقرآن ويختم به فقد حكى عن ممشاد الدينوري: أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فسأله عن اجتماع القوم للسماع. فقال لا بأس ابدعوا بالقرآن واختموا به.

ويكره للمريد سماع الغزل والأوصاف فأثما بعيدة الغور. حكى عن بعض المشايخ أنه قال: السماع شهوة في قعر شبهه لا يحسن تناولها إلا عارف ذو بصيرة وفطنة يختلس الشهوة ولا يمس الشبهة. وقال الجنيد: كل مرید رأيتة يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة. وقيل: السماع صراط ممدود يقصده صاحب يقين ووجود وصاحب شك وجحود إما أن يرفع سالكه إلى أعلى عليين أو يكبكه في أسفل السافلين. وقال بعض المریدین لبعض المشايخ: أليس المشايخ كانوا يميلون إلى السماع؟ فقال: إذا كنت مثلهم فاسمع أنت أيضاً. وقيل: السماع سرور ساعة تزول. وهم ساعة قنول.

ولا يحضر مجلس السماع من يتيسم أو يتلهى. حكى عن أبي عبد الله بن خفيف أنه قال: حضرت مع شياخي أحمد بن يحيى في دعوة بشيراز واتفق فيها سماع فطاب وقت الشيخ ويقام يتواجد ويدور وكان في صفة مجدائنا قوم من أبناء الدنيا، فتيسم واحد منهم فأخذ الشيخ منارة كانت هناك فرماه بها فأصاب الجدار فانغرست أرجلها الثلاث في الحائط وقد كان صلى ثلاثين سنة صلاة الصبح بوضوء العشاء. سئل بعض المشايخ عن شرب القلوب من السماع وشرب الأرواح منه، وشرب النفوس منه فقال: شرب القلوب الحكم وشرب الأرواح النعم وشرب النفوس ذكر ما يوافق طبعها من الحظوظ.

وسئل عن التكليف في السماع فقال هو على ضربين: تكلف من المستمع لطلب الجاه أو منفعة دنيوية وذلك تليس وخيانة وتكلف منه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بمنزلة التواجد وهو بمنزلة التباكي من البكاء قال صلى الله عليه وسلم ((أذا رأيتم أهل البلاء فابكوا فإن لم تبكوا فبياكوا)) (سنن ابن ماجه)

قال أبو نصر السراج رحمه الله أهل السماع على ثلاث طبقات: طبقة منهم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون وطبقة منهم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبة أحوالهم ومقاماتهم وأوقاتهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون إليه من ذلك وطبقة منهم الفقراء الجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبه الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون بطنية قلوبهم ويليق بهم السماع، فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة وكل قلب ملوث يحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف.

وقيل يحتاج إلى السماع من كان ضعيف الحال فإن القوي لا يحتاج إلى شيء من ذلك قال الحصري ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه ولعمري لا تحتاج الشكلى إلى نائحة.

وقيل: ا لسماع لقوم كالغذاء ولقوم كالدواء ولقوم كالداء ولقوم مروحة قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي.

الوجد قد يكون زيادة لقوم ونقصانا لآخرين وهو كالسلاح يصلح للجهاد في سبيل الله ولقتل أولياء الله وكذلك الشمس تصلح شيئا وتفسد شيئا آخر.

وقيل السماع من حيث المستمع فقد سمع بعضهم طوافا يصيح يا سعتر بري فأعني عليه فسنل عن ذلك فقال حسبته يقول اسع تري بري وسمع الشبلي رحمة الله منشدا ينشد ويقول:

أسائل عن ليلي فهل من مخبر يكون له علم بما أين تنزل

فرعق وقال: ولا والله ما في الدارين عنها مخبر وقال الصحيحي يجب أن يكون الواجد - إذا كان وجده صحيحا محفوظا في حال وجده لا يجري عليه لسان الذم بحال وقيل الوجد سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر، وصفات الظاهر الحركة والسكون وصفات الباطن الأحوال والأخلاق وأما حكم الخرق التي تقع في السماع فما كان منها على طريق مساعدة فهي للجماعة وما كان منها لقول قول وإنشاد منشد فإن لم يكن هناك جماعة فإنها للقول خاصة. وأن كان هناك جماعة فقد اختلفت أقاويل المشايخ فيها فذهب بعضهم ألي أنها للقول لأنه لما وجد الفائدة في سره من جهته خلع عليه بدلا عما أتخفه به وذهب بعضهم إلى أنها للجماعة والقول فيها كأحدهم لأن بركة حضور الجماعة لا تقتصر على قول القول وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: من أتى مكان كذا فله كذا، ومن قتل فله كذا، ومن أسر أسيرا فله كذا، فسارح الشبان والفتيان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين طلبوا ما جعل لهم فقال الشيوخ: كنا ظهرا لكم ورددنا فلا تذهبوا بالغنائم دوننا فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول)) (الآية الأولى من سورة الأنفال) فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بينهم بالسوية ومنهم من قال: إن كان القول من جملة القوم فهو كأحدهم وليس له استبداد بشيء منها وأن كان أجنبيا فما كان منها لها قيمة يؤثر هو بها وما كان من خريقات الفقراء فهم أولي بها. ومنهم من قال: إن كان القول أجيرا فليس له منها شيء وإن كان متبرعا فله ما صلى له منها: وإذا قلنا إنها لهم فحكمها أنهم لا يشتغلون بها ما داموا في السماع، فإذا أنقضي وقته جمعوها في السوط ثم إن كان هناك محب لهم فحكمه أن يفديها بما يوجب وقته عن غير معاوضة فيها ولا مناداة عليها، فإن ذلك استخفاف بحقها وحقهم ثم إن كان هناك شيخ له حكم فالحكم فيها إليه من تخريق وتبديل ورد على أصحابها وقال أهل الشام: الفقير أولي بخرقته، وأنكر الجمهور منهم ذلك ومنهم من قال: ما كان وقع منها على سبيل المساعدة أو مشوبا بالتكلف فالرد أولي، وأكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقه على سبيل المساعدة لما فيه من التكلف المباين للحقيقة وأن لم يكن هناك شيخ له حكم يعضون فيه حكم الوقت ولا يؤخرون ذلك ويكرهون تخريق المرفعات إلا أن يكون تبركا وما كان منها من خرق الفقراء فما كان يصلح منها للرقاع فتخريقه أولي لكن يصيب الكل نصيبا ولا يبقى البعض محروما ويفرق على الحاضرين دون الغيب لأن الغنيمة لمن شهد الواقعة وإذا حضر معهم غيرهم فالحجون منهم يعطون من الخرق.

وكيف يقسم ذلك؟ اختلف المشايخ فيه فقال بعضهم يقسم عليهم بالتفاضل كقسمة الموارث والغنائم وقال بعضهم أن كان يقسم ذلك شيخ يقسم بالتفاضل وأن كانوا يقسمونه فيما بينهم قسموه بالسوية وما لم يصلح فيها للرقاع فالإيتار بها أولي لمستحق من الفقراء وما كان ثياب الحبين فالبيع أولي والإيتار للقول بها دون التخريق.

فصل: في ذكر آدابهم في التزويج

الأولى أن يرغب في المرأة الدينية الصالحة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((تنكح المرأة لدينها ومالهها وجهالها، فعليك بذات الدين تربت يداك)) (الجامع الصغير) وقال صلى الله عليه وسلم ((أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة)) (الجامع الصغير) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلق النساء من ضعف وعورة فداووا ضعفهن بالسكوت وعوراهم بالبيوت.

وآدابهم في ذلك أن لا يتزوج للدينا ولا بذات اليسار بل للسنة وللدين والنسب والعفة ثم يقوم بما لا بد من الكفاية بحسب الطاقة فإن عجز أو طلبت فوق الطاقة خيرها بين الوفاق على المكنة أو طلاق الفرقة اقتداء برسول الله عليه وسلم حيث أنزل الله تعالى عليه (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) (الآية 28 من سورة الأحزاب) وكن تسعة فخيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأ بعائشة رضي الله عنها وقال لها: إني محدثك بحديث فاستشيري فيه أبويك فلما أخبرها به قالت: أوفيك أستشير أبوي؟ فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة وقالت: لا تخبر نساءك بهذا فقال والله لا يسألني عن ذلك إلا أخبرتهم فلما أخبرهن اخترن الله ورسوله فشكرهن الله تعالى على ذلك ثم أنزل (لا يحل لك النساء من بعد) (آية 52 من سورة الأحزاب) والأولى في زماننا مجانبة التزويج وقمع النفوس بالرياضة والجوع والسهر والسفر. روي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((عليكم بالنكاح فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)) (المسند للإمام أحمد) قيل لبعض الصالحين ألا تتزوج؟ فقال لي نفس لو تمكنت من تطليقتها لطلقتها فكيف أضم إليها أخرى؟ وقال بشر: لو دفعت إلى الاهتمام بمثونة دجاجة ما آمنت على نفسي أن أصبح شرطيا وقال مكابدة العفة أيسر من مصلحة العيال: وقال رأيت الصبر عنهن أسهل من الصبر عليهن وقال بعضهم: مقاساة العيال عقوبة تنفذ للشهوة الحلال وحكي أن رجلا خطب إلى ميمون بن مهران ابنه فقال: لا أرضاها لك قال: لم؟ قال لأنها طلبت الحلي والحلل فقال عندي ما هي تريد قال: إذا لا أرضاك لها. وأراد بعضهم تطليق زوجته فقيل له: ما يسوءك منها؟ قال العاقل لا يهتك ستر زوجته فلما طلقها قيل له لم طلقتها؟ قال: ما لي والكلام فيمن صارت أجنبية مني حراما على روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما هم بتزويج فاطمة رضي الله عنه لعلي رضي الله عنه قال له: تكلم لنفسك خطيبا وقد حضر المهاجرون والأنصار فقال: الحمد لله حمدا يبلغه ويرضيه وصلي الله على محمد صلاة ترفقه وتحصيه والنكاح مما أمر الله به ورضيه واجتماعنا مما أذن الله فيه وقدره وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجي ابنته فاطمة على صداق خمسمائة درهم وقد رضيت فسلوها واشهدوا وقال علي رضي الله عنه ما كان لنا إلا إهاب كبش نبيت عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار.

فصل: في ذكر آدابهم في السؤال

قال الله تعالى (لا يسألون الناس إلحافاً) (آية 273 من سورة البقرة) وقال (وأما بنعمة ربك فحدث) (آية 10 من سورة الضحى) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((أعطوا السائل ولو جاء على فرس)) (الجامع الصغير) وقال ((لو صدق السائل في سؤاله ما أفلح من رده)) وقال ((ما صاحب الصدقة بأعظم أجراً من الذي يقبلها إذا كان محتاجاً)).

وقال ((من سأل مسألة وهو غني عنها فإنما يستكثر من النار)) (المسند للإمام أحمد) وقال ((لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي)) (سنن ابن ماجه).

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال مكسب فيه بعض الريبة خير من مسألة الناس.

وقال الجنيد رحمه الله كل صوفي يعود نفسه أحد الأسباب عند وقوع الشدائد فإنه لا ينفك عن رقة نفسه ولا يحمل الصبر.

وقال أبو حفص من تعود السؤال ابتلي بالطمع والحيانة والفكر وآدابهم في ذلك أن لا يسألوا إلا عند الضرورة.

والحاجة ولا يأخذون إلا قدر الكفاية وقال بعضهم: الفقير إذا اضطر إلى السؤال فكفارته صدقة وقيل لا يجوز رد طالب فهو إما كريم فتصونه، أو لئيم فتصون نفسك عنه وتصون وجهك عن رده.

ويكرهون السؤال لأنفسهم ويستحبونه للأصحاب حكى عن ممشاد الدينوري كان إذا ورد عليه الغريب دخل الأسواق وجمع من الدكاكين شيئاً وحمله إليهم ولا يعدون ذلك سؤالاً لما فيه من التعاون على البر وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل لأصحابه ولو كان سؤالاً لا حترز منه صلى الله عليه وسلم. ويستحب بذل الجاه للإخوان قال بعض المشايخ لا يصح الفقر للفقير حتى يبذل جاهه كما يبذل ماله. وأدب الخادم في السؤال أن لا يري نفسه في الأخذ ولا في العطاء ويكون معولة على هم الفقراء ويكون الوكيل على الفريقين قال الشبلي إذا خرجت إلى الناس للسؤال فلا تراهم ولا تري نفسك.

وكان الشيخ أبو العباس النهاوندي إذا ورد عليه الغريب دخل السوق وجمع ما ينفق من الأطعمة ويحملها على يده إليهم وكان يقول منذ عشرين سنة ما أخذت من أحد شيئاً وكان يكره السؤال وينكر على أهله.

وقال الجنيد: لا يصح السؤال لأحد إلا لمن كان العطاء عنده أحب من الأخذ والأولى للخادم أن يستقرض ما يحتاج إليه من نفقه قومه بالمعروف وينفق عليهم ثم يسأل ويقضي دينه فإن ذلك أقرب إلى السلامة. وقد رخص بعضهم في السؤال لمن يقصد بذلك تذليل نفسه وقيل: لا خير فيمن لم يذق طعم إهانة الرد. وكان بعض المشايخ لا يأكل إلا من السؤال فسنل عن ذلك فقال: اخترته لكرهية نفسي له وقيل: سعي الإخوان الأحرار لإخوانهم لا لأنفسهم وقيل: الأكل بالسؤال أجهل من الأكل بالتقوى وقيل: من سأل وله ما يغنيه خيف عليه أن يخاصمه الفقراء يوم القيامة وتقول أخذت ما جعل لنا ولم تكن منا.

فصل: في ذكر آدابهم في حال المرض

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((حمي يوم بكفارة سنة)). وقال للأنصار لما حموا ((أبشروا فإنها كفارة وطهور)) (سنن ابن ماجة) وقال بعض الحكماء: إن في العلل مالا ينبغي للعاقل أن يجهل قدرها فإنها تمحيص للذنوب وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة وأذكار النعمة في حال الصحة، وتجديد للتوبة، وحث على الصدقة حكي أن ذا النون المصري دخل على مريض يعوده فأن أنه فقال ذو النون: ليس بصادق في حبه من لم يتلذذ بضرية وحكي أن بعض العارفين مرض فوصف علته للطبيب فقال له: أليس هذا شكوى؟ فقال: لا إنما هو إخبار عن قدرة قادر وقال خادم لكليب السنجاري: قال لي الشيخ يوما: هل ترى على ظاهر جسدي موضعا خاليا من الدود غير اللسان فقلت لا فقال كذلك ليس في داخل جسدي موضع خال من الدود غير القلب.

واعتل ممشاد الدينوري رحمه الله تعالى فقليل له: كيف تجد العلة؟ فقال سوء العلة فقليل له: كيف تجد قلبك فقال: فقدت قلبي منذ ثلاثين سنة.

وقال بعض المشايخ لأن أعاني فأشكر أحب إلى من أن أبتلي فأصبر.

فصل: في ذكر آدابهم في حال الموت

قال النبي صلى الله عليه وسلم ((أكثرُوا من ذكر هادم اللذات فما ذكره عبد في سعة إلا ضاقت عليه ولا ذكره في ضيق إلا اتسع عليه)) (سنن ابن ماجه).

وقال الخليلي: كنت عند الجنيد وقت وفاته فكان يقرأ القرآن فقلت: أرفق بنفسك يا سيدي فقال: أحوج ما كنت إليه الساعة وهو إذا تطوى صحيفتي وتحنم ثم ابتداء وقرأ سبعين آية من سورة البقرة ومات رحمه الله.
وحكا أن خيراً النساج نظر وقت النزاع وقال: إنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور وما أمرت به لا يفوتك وما أمرت به يفوتني فدعا بماء وتوضأ وصلى ثم كبر ومات رحمه الله.

وكان على بن سهل يقول: أتروني أموت كما يموت هؤلاء المرضى؟ إنما ادعى فأجيب. فكان يوماً جالساً إذا قال: لبيك فمات رحمه الله تعالى.
وحكا عن أحمد بن خضرويه لما حضرته الوفاة وكان عليه دين سبعمائة دينار وغرماؤه حوله فنظر إليهم ثم قال: اللهم إنك جعلت الديون وثيقة لأرباب الأموال وأنت تأخذ وثيقة غرمانني فإذعني فذق الباب وقال: هذا دار ابن خضرويه؟ قيل: نعم قال: أين غرماؤه؟ فخرجوا إليه ففضى لهم ثم خرجت روحه رضي الله عليه.

ولما حضر أبا عثمان الحيرى الوفاة مزق ابنه القميص ففتح عينيه وقال: خلاف السنة في الطاهر من رياء الباطن في القلب.

وقيل للجنيد عند الموت: قل لا إله إلا الله فقال ما نسيت فآذره.

وقيل لأبي محمد الديلمي: قل لا إله إلا الله فقال هذا شيء قد عرفناه وبه نفنى.

وقيل: لرويم ذلك. فقال لا أحسن غيره. وحكا أن أبا سعيد الخراز كان يتواجد عند الموت وكان قد مات جميع بدنه وبلغت الروح الحلقوم وهو يزعم ويقول:

حين قلوب العارفين لذكره وتذكارهم وقت المناجاة للسر
وأجسادهم في الأرض قتلى بجهه وأرواحهم في الحب نحو العلى تسرى

هذا يدل على سروره وسكون ضمير.

نظر الحسن البصري إلى رجل يجود بنفسه فقال: إن أمر هذا آخره أن يزهدي في أوله وإن أمر هذا أوله لجدير أن ينهيه آخره.

وحكا أن الشبلي اعتل بعلة فأرجف بموته فبادر المشايخ ودخلوا عليه وجلسوا حوله. فقال: أيش الخبر؟ فقال المالكي - وكان أجراًهم عليه -
جاء القوم إلى جنازتك فقال: العجب العجب من أموات جاءوا لجنازة حي.

وقال أبو بكر الدينوري: لما حضرت وفاة الشبلي فقال: على درهم مظلمة فتصدقت بألوف عن صاحبه وما على قلبي شغل أعظم من ذلك.

ثم قال: وضئني فوضأته ونسيت تحليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي فأدخلها في لحيته وقد عرق جبينه ولم يذهب عليه هذا القسدر من السنة فمات رحمه الله.

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: دخلت على عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد احتضر للموت فدخل عليه ابنه عبد الله فقال: يا عبد الله خذ هذا الصندوق. فقال لا حاجة لي فيه. فقال: إنه مملوء مالا. فقال: لا حاجة لي فيه. ثم قال عبد الله لبيته مملوء فقراً فقال ابن عباس رضي الله فقلت له: يا عبد الله: كنت أقول أشتهي أن أرى رجلاً عاقلاً يموت فأسأله كيف تجده وكيف يجديك؟ فقال: إن السماء كأنها منطبقه على الأرض وأنا بينهما وكأنما أتنفس من خرم إبرة. ثم قال: اللهم خذ مني حتى ترضى ثم رفع يده وقال: اللهم إنك أمرت فعصيت ونهيت فارتكبت فلا برىء فأعتذر ولا قوى فأنتصر ولكن لا إله إلا الله ثلاث - ثم مات. ولما احتضر عبد الملك بن مروان نظر إلى أولاده حوله وبناته يبكين. فأنشد يقول:

ومستخبر عنا يريد الردى ومستخيرات والعيون سواجم

فصل: في ذكر آدابهم وقت البلاء

قال الله تعالى ((وفتناك فتونا)) (آية 40 من سورة طه) قيل: طيختاك بالبلاء طبخاً حتى صرت صافياً نقياً. وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله تعالى ادخر البلاء لأولياته كما ادخر الشهادة لأحبابه)). وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((نحن معاشر الأنبياء أكثر الناس بلاء ثم الأمتل فالأمتل)) (سنن ابن ماجه) وقال عليه السلام ((أحب العباد إلى الله تعالى شاب عابد ومبتلى صابر وفقير ناشط فإن الله تعالى يتعاهد عبده بالبلاء كما يتعاهد الوالد الشفيق ولده)).

وآدابهم في ذلك ترك الجزع والشكوى في ملاحظة ثمرة البلوى وما أعد الله تعالى للصابرين حيث قال: ((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)) (آية 10 من سورة الزمر). فمن شهد برؤيته البلاء من المبتلى غاب عن وجدان مرارة البلاء وصعوبته قال الله تعالى ((واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)) (آية 48 من سورة الطور) ألا ترى أن صويحبات يوسف غبن في رؤيته عن وجدان ألم القطع ولم يشعرن بذلك إلى أن غاب. قال الله تعالى ((فلما رأته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله)) (آية 31 من سورة يوسف). وقيل لبعض الشطار: متى يهون عليك الضرب والقطع؟ قال إذا كنا نعاين من هواه. فيعد البلاء رجاء والجفاء وفاء والحنة منحة. أنشد مجنون بنى عامر يقول:

ومن أجل ليلى عذب القلب والحشا ومن أجل ليلى قربوا لي مكانيا
ومن أجل ليلى رجل القوم للمنى بنصح دمي يا حبذا أنت جانبا
ومن أجلها سميت مجنون عامر فداها من المكروه نفسي وماليا
فلولاك يا ليلى لما جئت طارقا أدور على الأبواب بالذل راضيا

وله أيضاً:

أذل لآل ليلى في رضاها وأحتمل الأكابر والصغار ا

ولأبي الشبص رحمه الله تعالى:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيدة حبا لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي عامدا ما من يهون عليك ممن يكرم

ألا ترى أن هؤلاء يهون عليهم البلاء في رؤية محبوبهم وكيف يتلذذون ويفتخرون به هكذا من يكون صادق في دعواه متحققاً في تغير الزمان وطوارق الحدثنان.

وقال بعضهم:

ذل الفتى في الحب مكرومة وخضوعه لحبيبه شرف

وروى أنه قيل للحسن بن علي أبي طالب رضي الله عنهما: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إلى من الغنى، والسقم أحب إلى من الصحة. فقال رضي الله عنه: رحم الله أبا ذر أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختارها الله تعالى له.

حكى أن جماعة دخلوا على الشبلي وهو في البيمارستان مقيد فنظر إليهم وقال: أيش أنتم؟ فقالوا: أحباؤك فرماهم بالحجارة فهربوا فقال: يا كذايين تدعون محبي ولا تصبرون على مضرتي - أي أذيتي - ابعدوا عني.

ومن آدابهم: أن لا يتماوت ولا يعجز بل يتجلد ويصبر. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فقل من قدر الله وما شاء فعل وإياك ولو فإن لو تفتح بابا من عمل الشيطان)) (صحيح مسلم).

وقال ابن عطاء: في أوقات البلاء يتبين صدق العبد من كذبه فمن صبر في أوقات الرخاء وجزع في أوقات البلاء فهو من الكاذبين قال الله تعالى ((آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)) (الآيات 1-2-3 من سورة العنكبوت).

وقوله تعالى: ((ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين)) (آية 31 من سورة محمد) ثم إن البلاء في الإنسان بمنزلة الدباغ يستخرج الرعونات (الأوساخ) ويصير إلى حالة يمكن الاستفادة منه.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: البلاء سراج العارفين ويقظة المريدين وهلاك الغافلين.

وحكي أن جعفر الصادق عليه السلام كان إذا أصيب يقول: اللهم اجعله أدبا ولا تجعله غضبا وذلك لأن البلاء منه ما يكون تمحيصا ومنه ما يكون تأديبا ومنه ما يكون اختبارا، ومنه ما يكون عقوبة وخذلانا.

وقال الحريري: البلاء على ثلاثة أوجه: على المخلطين نقم وعقوبات وعلى المذنبين تمحيص للجنايات وعلى الأنبياء والصادقين من صدق الاختبارات.

ولا يمكن الوقوف على آدابهم وسيرهم فيه إلا بذكر حكاياتهم فقد سئل الجنيد ما فائدة المريدين في الحكايات؟ فقال: إنها تقوي قلوبهم فقيل: هل في ذلك حجة من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم. قوله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (آية 120 من سورة هود).

فصل: في ذكر آدابهم في الرخص

قال النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله يحب أن تؤتي رخصة كما يحب أن تؤتي عزائمه)) (الجامع الصغير)
سأل عمر بن خطاب رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بالناس نقصر الصلاة وقد أمنا؟ فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم ألا فاقبلوا صدقته (الجامع الصغير) والرخصة منهل يرد عليه المبتدئ من المريدين ويتحير فيه المتوسط من السالكين ويستريح إليه الفائز من العارفين ولا يستوطن فيه المتحققون لأنه واد متسع كثير الآفات إلا على نية الرحيل اضطرارا فالمرتع في جانب الحمى يوشك أن يواقع الحمى، لأن حمى الله تقاء محارمه، وكل من انحط عن درجة الحقيقة وقع على طريق الرخصة ومن سقط منها وقع في الضلالة والجهل. والترخص في مذهب الصوفية هو الرجوع عن حقيقة العلم إلى ظاهر العلم وذلك نقص في أحوالهم.

سئل بعض المشايخ عن سوء أدب الفقير فقال انحطاطه عن درجة الحقيقة إلى الظاهر ولذلك قال ذو النون المصري رياء العارفين إخلاص المريدين. وسئل عن ذنوب المقربين فقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

رئي الجنيد بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وبخني على كلمة كانت سبقت مني، وذلك أن سنة احتبس فيها المطر فقلت: مع الناس: ما أحوج الناس إلى المطر، فقال وما يدريك أن الناس يحتاجون إلى المطر؟ تعلمني؟ إني عليهم خبير اذهب قد غفرت لك. روي أبو هريرة رضي الله عنه قال ((أتى النبي عليه السلام فقيل مات فلان من أهل الصفة وترك دينارين - أو درهمين - فقال كيتان صلوا على صاحبكم)) (مسند الإمام أحمد).

وقد صح أن من الصحابة من مات وخلف مالا جما لم ينكر عليه وإنما أنكرها هنا لأنه خالف معني دعواه ألا تري أن الصلاة طاعة ولكن من كان محدثا أو قرأ جنبا استحق المقت والعقوبة وقوله عليه السلام ((من تسبه بقوم فهو منهم)) (الجامع الصغير) أراد التشبه بسيرتهم لا بلبسهم لأنه روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ((من نهيأ للناس بقوله ولباسه وخالف ذلك أعماله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمع)).

ثم إن لهم في رخصهم أدبا وأخلاقا يحتاج المترخص إلى معرفتها والتمسك بها ليكون مترسما برسومهم ومتحليا بحليتهم إلى أن يبلغ مقامات المستحقين وأحوالهم.

ومن رخصهم اتخاذا الصنعة والاستناد إلى العلوم وأدبهم.

في ذلك أن لا يمتلكها بل يجعلها في المصالح ولا يزيد على نفقة سنة له ولعياله ولمن يموه، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: كان أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت له خاصة وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في الكراع وخيل السلاح والعدة في سبيل الله عز وجل.

ومنها الاشتغال بالكسب لصاحب العيال أو الوالدين، وأدبهم في ذلك أن لا يشغله ذلك عن فرائض الله تعالى التي أوجها عليه في أوقاتها ولا يراه سببا في الرزق بل هو معاونه للمسلمين ولا يشتغل بذلك أكثر أوقاته بل يجتهد أن يجعل أوقات كسبه من وقت الضحى إلى آخر صلاة الظهر ثم يرجع ما بين صحبه فيصلي معهم الخمس إلى الضحوة المقبلة من الغد وإن فضل من كسبه عن نفقة عياله شيء أثر به إخوانه وأهل صحبته.

ومنها السؤال وأدبهم في ذلك أن لا يسأل إلا وقت الحاجة قدر الكفاية لمن يموه ولا يبذل وجهة لمن يهون عليه رده: قال النبي صلى الله عليه وسلم ((أذا سألت فاسأل الصالحين)) (سنن النسائي) ويتلطف في سؤاله من غير تواضع فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((لعن الله فقيرا يتواضع لغني لأجل ماله)).
ويروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه قال في ذلك المعنى:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك وهن منك في الدين
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغني الملوك بدينهم عن الدين
واسترزق الله مما في خزانته فإن ذلك بين الكاف والنون

وما يحصل من سؤاله لا يدعه في ملكه بل يسلمه عياله لفرغ قلبه عن شغلهم ولا ينفقه بالسرف ولا يجعل ذلك عادة ومعلوما له.
ومنها الاستدانة على الله عز وجل وأدبهم فيها أن يكون ذلك لمصالح الأخوان وعند الضرورة ولا يغفل عن الاهتمام بالتوجه والأداء.
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((من أدان ديناً وهو ينوي أداءه وقضاه، ومات ولم يترك وفاء قضى الله تعالى لغريمه يوم القيامة)) (الجامع الصغير).

ومنها حمل الزاد في الأسفار وأدبهم في ذلك أن لا يخل به على من هو في صحبته ممن يحتاج إليه.
روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فأمر أن ينادي: ألا من كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ألا من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له فذكر من الأصناف ما ذكر حتى ظننا أنه ليس لنا في فضل الذي في أيدينا حق (صحيح مسلم).
ومنها الحج عن الغير بالأجرة وأدبهم في ذلك أن لا يفعل ذلك إلا عند الضرورة ثم يجعل نفقته في ذهابه وقفوله من ذلك لا من السؤال ولا من الأوقاف قال النبي صلى الله عليه وسلم ((من حج عن ميت كتب للميت حجة وللحاج براءة من النار)) (كنز العمال).
ومنها الأسفار للدوران في البلدان وأدبهم فيها أن يجعل قصده فيها زيارة أخ في الله أو استحلال أو طلب علم ثم يحصل في سفره غرضه.
ومنها القيام والحركة في السماع وأدبهم في ذلك مراعاة الوقت وترك المداخلة والمزاخرة مادام الوقت جدا وإذا كان طيبة يجوز ذلك على سبيل المساعدة والمطابفة من غير تسامر ولا إظهار حال.

ومنها المزاح وأدبهم في ذلك مجانبة الكذب والغيبة والمحاكاة والسخف وما يذهب بالمرودة قال النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله تعالى لا يؤاخذ بالمزاح الصادق في مزاحه)) وعن علي كرم الله وجهه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر الرجل من أصحابه إذا رآه مغموما بالمداخلة.

ويكره الإكثار منه خاصة لذوي الهيئات فقد قيل لا تمزح الشريف فيحقد عليك ولا الدينء فيجترئ عليك وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يلفت إلى أصحابه مخافة أن يراهم يمزحون فيتشورون (سنن ابن ماجة) وكان ببعض أصحابه رمد وكان يأكل التمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ((أتأكل التمر وبك رمد؟ فقال يا رسول الله إنما أكل بالجانب السليم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم))
ومنها إظهار العلوم التي ينبغي استعمالها وأدبهم في ذلك طلب الإفادة والنصح والإرشاد قال عليه السلام ((نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب رجل حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)).

ومنها لبس المرقعات المعمولة، أدبهم فيها مجانبة الشهرة منها فلا يضيع أكثر أوقاته بالاستغال فيها وتلفيق بعضها إلى بعض والتجاوز في تزيينها فإن ذلك يحصل تفويت الوقت بلا فائدة دينية ولا دنيوية وكان بعض المشايخ إذا رأوا الفقير تجاوز في تزيين مرقعته ولباسه ازدروه حتى قال بعضهم: لما فقدوا الفائدة من بواطنهم اشتغلوا بالظواهر وتزيينها. ورأى النبي صلى الله عليه وسلم على بعض الوفود ثيابا رثة فقال " ألك مال؟ قال: نعم قال: فليبر عليك قال: فيستحب في ذلك التوسط.

ومنها المعانقة عند الملاقة وتقبيل بعضهم بعضاً وأدبهم فيه أن يكون ذلك مع أشكاهم وجنسهم وأهل الأتس منهم روي أبو الهيثم بن التيهان أنه قال: لقيني النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة فاعتنقني وقبلني وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصل المعانقة قال ((فإنها إثبات المودة)).

ومنها حب الرياسة وأدبهم فيه أن يعرف قدر نفسه ويعرف حده ولا يتمني فوق قدره ولا ينزل إلا في منزلته فقد قيل: ينبغي للعاقل أن لا يرفع نفسه فوق قدره ولا يضعها عن درجته وقيل ارتفاع الجاهل فضيحة كارتفاع المصلوب. وقيل الخمول خير للجاهل من النباهة لأن الخمول ستر لمعايبه والنباهة نشر لمثاليه. ولا يطلب ما لا يناله فإن ذلك يضيع ما في يده وقيل: من اقتصر على قدره كان أبقى لجمال وجهة وقال بعض المشايخ: آخر آفة تخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة

ومنها التقرب إلى السلاطين والدخول عليهم وأدبهم فيه أن لا يكون إلى مدح المدحيين ولا يغتر بقولهم، وإن مدح بخلاف ما يعرفه من نفسه أعرض عنه، قال الله تعالى ذاما لمن أحب أن يحمده بما لم يفعل (ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا فلا تحسبهم بمفازة من العذاب) (آية 188 من سورة آل عمران) وفيه دليل على أنه من أحب أن يحمده بما يفعل لم يأنم غير أنه مخوف وليلعل عند ذلك اللهم اجعلي خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون، يروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه سمع مدح مادح فقال: أنا دون ما أظهرت وفوق ما ضمرت. منها تعبير السفهاء بأسلافهم في حال الضجر والأدب في ذلك أن لا يكون إلا في مقابلة سوء أدب ويكون تعريضا لا تصرحا يروي أن نفرا من اليهود حضروا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وآذوه ونقصوا دينه فاشتد عليه ذلك، فأنزل الله تعالى (قل هل أتيتكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله) (آية 60 من سورة المائدة).

ومنها إظهار الطاعات والعبادات وأدبهم فيه أن يكون إظهارها ليتأدب به مريد أو يقتدي به مقتد ولا يلتفت إلى قبول الخلق ورددتهم، سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الجهر بالقراءة والإخفاء فقال (إن تبدوا الصدقات فنعمنا هي) (آية 271 من سورة البقرة) ة: فقلت: هذا في النوافل والفضائل. فأما الفرائض فلا خلاف بين أهل العلم أن إظهارها أولى.

ومنها التبرز للسرور والنزهة وأدبهم في ذلك أن يرتاد خلوه في كهف أو واد أو موضع يخلو عن أنواع المنكر، كيلا يتولد منه ما لا يقوم بإزالته ثم يتشبه بأصحابها إن أقام في مواضع المنكر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه النظر إلى الخضرة والماء الجاري. ومنها النظر إلى الملاهي وأدبهم في ذلك مجانبية المحرمات والمنكرات منها فما حرم فعله حرم النظر إليه. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الحبشة تلعب وأنا أنظر إليهم من باب حجرة لي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستترني بردائه، فلم ينصرف حتى كنت أنا التي انصرفت.

ومنها حضور المجالس التي يجري فيها الخوض في ترهات الكلام وأدبهم في ذلك اجتناب سماع الغيبة والمناكير منها روي عن جابر بن سمرة قال جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذكرون من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم. ومنها تناول الأطعمة الطيبة وأدبهم في ذلك أن لا يجعل ذلك عادة بل يكون ذلك بين فاقة سابقة ورياضة لاحقة ليسلم له ذلك. وروي أنه كان يعجبه الطيب والحلوى (الجامع الصغير) وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إذا عرض على أحدكم الطيب والحلوى فلا يردهما حتى يمسه منهما)) وقال صلى الله عليه وسلم ((أهسوا اللحم فإنه أهنا وأمرأ)) (سنن الترمذي) وقال صلى الله عليه وسلم ((سيد الطعام لأهل الجنة اللحم وسيد طعام أهل الدنيا اللحم)) (الجامع الصغير).

ومنها رهن الثياب على الطعام وأدبهم فيه أن لا يكون ذلك إلا عند الضرورة رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه عند يهودي بأوسق من شعر. ومنها الهرب من الهوان ومن تحمل الأذى والجفاء وأدبهم في ذلك طلب سلامة الصدر واجتناب المعادة قال بعض المشايخ الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين قال الله تعالى حاكيا عن كليمة موسى عليه السلام ((ففررت منكم لما خفتكم) (آية 21 من سورة الشعراء) وقال الشافعي رحمه الله تعالى: اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورجب في مودة من لا ينفعه وقبل مدح من لا يعرفه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ليس للمؤمن أن يذل نفسه)).

ومنها الانبساط إلى الأصدقاء في قصد منازلهم والإمام بهم من غير استدعاء وأدبهم في ذلك تخصيص من يفرح بذلك ويعرف موضع ذلك من الإكرام قصد النبي صلى الله عليه وسلم دار أبي الهيثم بن التيهان ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنه فقدم إليهم ما حضر من لبن وتمر فأكلوا وشربوا وقال صلى الله عليه وسلم ((هذا من النعيم الذي تسألون عنه)).
ومنها المعاتبة للإخوان وأدبهم فيها أن يقصد بذلك إزالة ما وجد عليه من قبله لا التشفي بل تطهير القلب من الغل والحقد ويقبل عذر صاحبه فقد قيل:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهرة وقد أجلك من يعصيك مستترا

وقيل: ظاهر العتاب خير من مكثون الحقد وروي قنبر مولي علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: دخلت مع علي عثمان رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين فأحب الخلوة فأوماً إلى علي كرم الله وجهة بالتسحي فتسحت ناحية فأخذ عثمان يعاتب عليا وهو مطرق لا يتكلم فقال لم لا تتكلم؟ قال: إن قلت لم أقل إلا ما تركه وليس لك عندي إلا ما تحب.
وحكي أن يحيى بن خالد عاتب عبد الملك بن صالح في شيء كان بينهما فقال في ضمن كلامه: أنك لحقود فقال له: أن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر في القلب فالأثمما التابتن عندي فلما تراضيا وقام عبد الملك قال يحيى: هذا أجل قريش وما رأيت أحدا زين الحقد بعبارته حتى أذهب سماجته غيره.

ومنها مدح الممدوح، وذم المذموم وأدبهم في ذلك أن يحفظ حدود الحق في الجانيين ولا يتجاوزها إلى متابعة النفس والقول بالهوى وروي أن رجلين من سادات العرب حضرا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فمدح أحدهما صاحبه وأطراه وقصر صاحبه في تطريته فوجد عليه من ذلك فأخذ يذكر مثالبه فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منه فقال يا رسول الله، والله لئن صدقت في الأولي ما كذبت في الأخرى والإنسان لا يخلو من مناقب ومثالب والراضي لا يري المثالب والساخط لا يري المناقب فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((أن من البيان لسحرا)) (مسند الإمام احمد).
ومنها هجران من يستحق ذلك، وأدبهم فيه أن يقصد لإظهار الحق وتحقيق الباطل والمعاداة في الله عز وجل هجر رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك وصاحبه لتخلفهم عن غزوة تبوك وأمر أصحابه بمجرأهم وترك مجالستهم ومكالمتهم قال تعالى (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) (آية 118 من سورة التوبة).

ومنها تحريق المرقعات على أصحابها المزورين والأدب في ذلك أن يقصد إبطال تمويهاته وخيائنه وخديعته وتلييسه قال الله تعالى ((ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم)) (آية 94 من سورة النحل) أي مكرا وخديعة، ومنزلتها منزل الشعر المزور على منتحل نسب الشرف وأنه من أولاد العلوية فيجب إنكار ذلك وإظهار فساد ما ادعاه من النسب، لنلا يغتر بهم من لا يعرفهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمدم المسجد الذي اتخذوه ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإحراقه لما علم قصدهم اتخاذ ذلك وإن كان ظاهره مسجدا قال الله تعالى (لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى) (آية 108 من سورة التوبة).

وأمر بقطع نخل بني النضير فانزل الله تعالى (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله والخزي الفاسقين)) (آية 5 من سورة الحشر).

ومنها استجازة الكذب في المصالح وأدبهم فيه طلب الإصلاح وإظهار الحق قال الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام (بل فعله كبيرهم هذا) (آية 63 من سورة الأنبياء) وفي قصة داود عليه السلام قال تعالى (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) (آية 23 من سورة ص) حكي أن جعفر الصادق رضي الله عنه ناظر مرجنا عند أبي جعفر المنصور فقال جعفر: أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمرجيء فأمر بقتله، فقال المرجسيء مجيبا له: وأين كان الإرجاء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جعفر: فدين لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين جئت به؟ ثم قال: فيم استجزت الكذب على رسول الله وقد قال ((من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)) (الجامع الصغير)؟ فاحتج جعفر بقصة إبراهيم، وقصة داود عليهما السلام فانقطع الجريء ومنها زيارة العجائز وأدبهم في ذلك أن يكون قصده التقرب إلى الله تعالى

والتزاور في الله وطلب البركة والدعاء روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: قوموا بنا نزور أم أيمن كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها.

ومنها التكلف مع أبناء الدنيا والرؤساء والسلاطين والقيام لهم وحسن الإقبال عليهم وأدبهم في ذلك أن لا يكون طمعا في دنياهم ولا لاتخاذ جاه عندهم: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تدخل عليه سادات قريش فيكرمهم ويجلهم ويحسن مجالستهم وقال: ((إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه)).

ومنها البكاء عند المصيبة وأدبهم في ذلك أن يكون ذلك من غير نوح ولا رفع صوت بكى النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ابنه إبراهيم وقال ((العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول ما يسخط الرب وإنا بك يا إبراهيم نخزون)) (صحيح مسلم) ومنها صحة الأحداث وأدبهم في ذلك ما قد مضى ذكره في باب أدب الصحة.

ومنها إظهار البشر عند من يكرهه قلبه وأدبهم في ذلك أن يكون القصد فيه طلب السلامة لا رياء فيها ولا نفاقا روت عائشة رضي الله عنها أن رجلا استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال: بئس أخو العشرة ثم أذن له فلما دخل ألان له القول فتعجبت من ذلك فلما خرج سألته عن ذلك فقال: يا عائشة إن من شر الناس من يكرمه الناس اتقاء فحشة)) وينشد الشافعي رضي الله عنه يقول:

إني احبي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه لأنه قد حشا قلبي مودات
لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحمت نفسي من هم العداوات

ومنها مقارفة أوباش الناس على أقدارهم ومقدار عقولهم والأدب في ذلك طلب السلامة من غوائلهم وينشد في ذلك المعني.

وأنزلي طول النوى دار غربة إذا أنا لاقيت الذي لا أشكاله
فحامفته حتى يقال سجيته ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ومنها الاعتضاد بالسفهاء للملمات ودفع المضرات وأدبهم فيه أن يقصد بذلك صيانة نفسه وماء وجهه عن مواجهة غير أشكاله قال الأحنف بن قيس: أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم النار والعار، وروي ابن سيرين قال كان عمر رضي الله عنه يعجبه أن يصحبه سفيه ليرد سفه السفية عنه، وأنشد بعضهم في المعني:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ويتقي مريض المستأسد الحامي

ومنها ذكر من فيه عيب بما يكره وأدبهم فيه أن لا يذكروا عيوب الناس إلا ما اشتهر منها لئلا يكون هتك حرمة مستورة روت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها ((أنما كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عيينة بن حصن من غير إذن فقال صلى الله عليه وسلم أين الاستئذان؟ فقال: لم أستأذن على رجل من مضر منذ أدركت فلما خرج قلت: من هذا؟ فقال ((أحمق مطاع)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((أمر المستشير في أمر المخاطبين، أما فلان فشحیح، وأما فلان فلا يضع عصاه عن عاتقه)) ومنها مواساة الشعراء وأمنائهم وأدبهم في ذلك أن يقصد صيانة عرضه عنهم وسلامة دينه منهم وإعطاء سؤلهم أو بعض مأمولهم لكيلا يتأثروا عليه قال النبي صلى الله عليه وسلم ((ما وقى الرجل به عرضه فهو صدقه)). وروي أن بعض الشعراء حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشد شعرا ذكر فيه قسمة الغنائم يوم حنين وقال:

أتجعل نهي وهب العبيد بين عيينة والأقرع

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((اقطعوا عني لسانه)) فأعطي خمسا من الإبل وروي أن كعب بن زهير كان قد هجا النبي صلى الله عليه وسلم فكان قد أهدر دمه ثم أتاه مسلما ومدحه بالقصيدة المعروفة فقال فيها:

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فكساه بردته وهي التي اشتراها معاوية من ابن كعب، وهي التي كانت تلبسها الخلفاء.

ومنها نَب النثار وأدبهم فيه مجانبة الشره وأن يقصد إدخال السرور على صاحبه.

ومنها الافتخار وإظهار الدعوى وأدبهم فيه أن يقصد به إظهار نعم الله قال الله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) (آية 11 من سورة الضحى) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأدم ومن دونه تحت لوائي لو كان موسي حيا لما وسعه إلا أتباعي)) (سنن ابن ماجه) وكان إذا رجع ألى نفسه يقول صلى الله عليه وسلم ((أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد، إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد هون عليك فلست بملك إنما أنا عبد)) (سنن ابن ماجه) وأما عند الضد فروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاه وفد بني تميم بخطيبهم وشاعرهم ليفاخروه دعا النبي عليه السلام بنابت بن قيس وكان خطيبه فأجاب خطيبهم وغلبهم ودعا حسان بن ثابت بن قيس وكان خطيبه فاجاب خطيبهم وغلبهم ودعا حسان بن ثابت رضي الله عنه وكان شاعره فأجاب شاعرهم وذكر في قصيدته:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتهم علينا تفخرون وأنتم لنا حول من بين ظنر وخادم

فقال النبي عليه السلام: لقد كنت غنيا يا أبا دارم أن يذكر منك ما ظننت أن الناس نسوه، وكان قوله صلى الله عليه وسلم أشد عليهم من شعر حسان فقاموا مغلوبين مقهورين ثم أسلموا فأحسن إليهم وكساهم.

ومنها الحرد والضجر عند وجود الخال وما لا يجب احتماله قولاً وفعلاً وأدبهم في ذلك أن يجتنب الفحش والبذاء، ويحفظ حدود الحق ولا يتجاوزه إلى ظلم، فإن الغضب إذا استولى غلب على العقل، قال الله تعالى (لا يجب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) (آية 148 من سورة النساء) وقال صلى الله عليه وسلم ((من استجهر مؤمناً فعليه وزره)) وقال الشافعي رحمه الله ((من استغضب فلم يغضب فهو حمار)) وقال الله تعالى ((والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) (آية 39 من سورة الشورى) وقيل في التفسير: كانوا يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا وقال الله تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (آية 42 من سورة الشورى).

ويجتهد أن لا يغضب لنفسه بل يكون ذلك غيره للحق سبحانه وتعالى والإخوان روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتقم لنفسه قط إلا أن تنهك محارم الله فينتقم الله تعالى قيل لبعض الحكماء: إنك تحتمل في نفسك ولا تحتمل في صديقك. فقال: لأن احتمالي في نفسي حلم واحتمالي في صديقي لؤم.

قال الشيخ الإمام ضياء الدين شيخ الإسلام صاحب الكتاب رضي الله عنه وهذا ما حضرني في الوقت من آدابهم في الرخص، ذكرتها على الاختصار دون الإكثار وأنا أبرأ إلى الله تعالى من الزلل والغلط وأسأله التجاوز عن ذلك قال تعالى (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) (آية 88 من سورة هود) ثم أن المذهب له أحوال ومقامات، وأخلاق ورخص وآداب فالرخص أدناها فمن تمسك بالكل فهو من المتحققين ومن تمسك بالظاهر من الأخلاق والآداب فهو من المترسمين ومن تمسك بالرخص فهو من المشبهين الصادقين الذين ألحقهم النبي صلى الله عليه وسلم بهم بقوله ((ومن تشبه بقوم فهو منهم ومن كثر سواد قوم فهو منهم)) (الجامع الصغير)

هذا إذا لازم الأصول الثلاثة التي أجمع المشايخ رحمهم الله عليها وهي أداء فرائض الصلاة عسيرها ويسيرها واجتناب الحارم صغيرها وكبيرها وترك الدنيا على أهلها قليلها وكثيرها إلا ما لا بد منه للمؤمن منها وهي ما استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فقال ((أربع من الدنيا وليست منها كسرة تسد بها جوعتك وخرقة تواري بها عورتك وبيت يكنك من القر والحرج وزوجته صالحة تسكن)) إليها وما سوي ذلك فليس له فيه حق.

قيل للجنيد: وما تقول فيمن لم يبق فيه إلا مقدار مص نواة هلي يقع عليه اسم التصوف؟ فقال المكاتب عبد ما بقي عليه درهم فمن لازمها فهو من المبتلين في المذهب. وعليه أن يجد ويجتهد في طلب الزيادة والارتقاء إلى معالي الأحوال، ليصير من المتحققين، فقد قال بعض المشايخ من شق عليه ركوب الأهوال لم يرتق إلى معالي الأحوال ومن لم يرتق إلى معالي الأحوال لم يبلغ مراتب الرجال قال الله تعالى (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) (آية 16 من سورة الجن).

ومن جانب الأصول أو بعضها أو الحط عن درجة الرخصة فترك ما ذكرنا من آدابها فقد فارق المذهب ونأى بجانبه وحرّم عليه أرفاقهم وأوقاتهم ويلزم الجماعة مفارقتة وهجرانه وإبعاده وخذلانه ومن داهنه منهم في شيء من ذلك فهو شريكه في عاره ولا عذر له فيه قال الله تعالى (ومن يتوهم منكم فإنه منهم) (آية 51 من سورة المائدة) جعلنا الله تعالى وإياكم من الصادقين وألحقنا بالمتحققين بمنه وجوده وعصمنا من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ووقفنا لطلب مرضاته ما خفي منها وما علن ونفعنا وجميع المسلمين بما جمعنا ولا جعله علينا ولا على من نظر فيه وبالا ولا جعل حظنا من ذلك جمعه وحفظه دون استعماله ومتابعته بجوده وسعه رحمته إنه عزيز ثواب قريب مجيب كريم وهاب.

تم الكتاب بحمد الله وعونه